

تطور الشعر الروسي ومدارسه

(١) كلمات قبل البداية (١)

لا شك ان اي دراسة عن تطور الشعر الروسي ومدارسه لا بد ان تعود بسرعة وقبل ان تعرف على بدايات اليلاد ثم تمضي في رحلة هذا الشعر مع التطور ، او تتحدث عن العناق الدامي في مسيرة هذا الشعر بين العيوبه والطابع المأساوي .. لا بد ان تعود قليلا الى الوراء .. الى ايام ما قبل الميلاد بالنسبة لهذا الشعر الذي لا يربو عمره على اكثر من قرنين من الزمان .. السى حيث كانت النماذج الشفهية التي ما زالت هناك نصوص قليلة منها محفوظة لدينا .. ونرجع معظم النصوص الاولى التي وصلتنا من هذا الشعر الى القرن العاشر الذي دخلت فيه المسيحية الى روسيا عبر بيزنطة .. حيث اصبحت السلافية لغة الكنيسة .. وعلى مدى قرنين من الزمان لا تستطيع ان تمش على غير حفنة قليلة من النماذج المدونة من هذه البدايات الشعرية .. لكن البداية الحقيقية التي يستطيع الباحث ان يعتمد عليها كما تجمع اغلب المصادر عن تاريخ هذا الشعر تعود في الواقع الى القرن الثالث عشر .. حيث بدأت تتكون فيه البدايات الاولى لبراز شعري يتمزج بالتراث الادبي للكنيسة السلافية. ونف اعظم مؤلفات هذه الحقبة ملحمة ايجور Slovo o Polku Igoreve . كتبت حوالي ١١٨٥ - بمفردها (٢) كانجاز فني اصيل «لا يمكن مقارنته الا بأغنية (رولاند) . وموضوع هذه الملحمة المؤثرة هو هزيمة الامير ايجور في صراعه ضد الغزاة الاسيويين واسر اعدائه له . وقد كان مؤلف هذه القصيدة احساس مرهف بالطبيعة ووعي قومي كبير . ويتسم وصفه للحوادث بالوضوح والدرامية ، بينما تتسم فقراته الغنائية والتي تروي حزن زوجة ايجور مثلا بحدتها العاطفية وعذوبتها الشعرية . كما ان وحدة الشكل والكمال الشعري في هذه القصيدة يضعانها في مرتبة اعلى من كافة المؤلفات الاخرى للفترة عينها . يؤكد لنا هذا ان الشعر في روسيا في مستهل القرن الثالث عشر كان قد وصل الى مستوى عال من الاجادة مما نتاى معه مقارنته

(١) سنثبت اسم المرجع بالتفصيل وبلغته الاصلية في اول مرة نذكره فيها ونذكر معه كل المعلومات الجيولوجرافية عنه . وبعد ذلك سنكتفي باسم المؤلف والكتاب باللغة العربية فقط

(٢) عن هذه الملحمة اخذ الموسيقار الروسي برودين موضوع اوراه الشهيرة (الامير ايجور) .

مقارنة مرضية بمثيله من الشعر الاوربي » (٢) .

وتناجعت النماذج الشعرية الشفهية بعد ملحمة ايجور .. فكانت هناك مجموعة القصائد البطولية التي عرفت في المصور الوسطى باسم (بيليني Byliny) (٤) والتي امتزجت فيها الخرافة بالاسطورة بالاغنية الشعبية بالوقائع والاحداث التاريخية . ومجموعة اخرى من القصائد الدينية هي (مراني يوسف Dukhovnye Stikhi) ازدهرت ما بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر وما يزال تتداول مثل (بيليني) حتى اليوم والتي اهتمت بالجانب القصصي وبسرد المعجزات والخوارق الدينية في حياة روسيا وفي حروبها . واستمرت المزاوجة بين القصائد البطولية ذات الطابع الشعبي واللغة البارحة والقصائد الدينية ذات الطابع الكنسي واللغة سلافية دون تطور فني كبير ، حتى عصر بطرس الاكبر (١٦٧٢ - ١٧٢٥) السلفي اسس امراطورية روسية مترامية الاطراف ، وشيد لها عاصمة جديدة على نهر نيفا قرب بحر البلطيق هي سانت بطرسبورج - لينتجراد الآن ، واكتسب لبلاده مكانا عظيما ومرموقا في اوروبا عقب انتصاراته الحربية على الاتراك والسويديين ، وعمل على الانسلاخ بها بعيدا عن قبضة التقاليد البيزنطية بتزمتها وعزلتها فالقسي بروسيا في تيار الحضارة الغربية بعنف ، وفتح ابوابها لمخزات هذه الحضارة وادابها ومعارفها . وقد قام بتأسيس اول جريدة روسية وشجع ترجمة العلوم والفلسفات وآثار رجال الفكر والسياسة في اوروبا وارغم ابناء الطبقات العليا على تعلم اللغات الاجنبية واداب المسلسوك الاوروبية . وكان لتنامي تيار الترجمة والجريدة الفضل الاكبر في تبسيط اللغة الروسية وتحريها من جهود سلافية الكنيسة القديمة التي انزوت تحت ضغط اصلاحات بطرس الاكبر بعيدا عن الحياة وتقوحت على نفسها داخل الكنيسة ، بعد ان تركت بعض مفرداتها وبعض تراكييها في اللغة الجديدة البسطة . واخذت هذه اللغة الجديدة تستوعب ثمرات العقل الاوربي ، وابداعات عصر النهضة الاوربي ثم المدرسة الكلاسيكية والكلاسيكية الجديدة في الشعر والمسرح من بعده ، وخاصة خلال القرن الذي امتد منذ وفاة بطرس الاكبر وحتى اندلاع شرارات الثورة بالؤامرة التي كانت فاتحة عصر

(٢) مارك سلونيم (تاريخ الادب الروسي) ترجمة صفوت عزيز ، منشورات الالف كتاب بالقاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٦ و ٧ .

(٤) عن هذه القصائد البطولية اخذ الموسيقار الروسي ريمسكي كورساكوف موضوع احدى اوبراته المعروفة .

بتأسيس واحد من البحرين العرويين اللذين استمر الشعر الروسي يجري عليهما حتى اليوم وهو البحر البيناري الذي ينهض على عروض الايام الانجليزي - اما البحر الثاني فهو الترناري الذي ازدهر في المرحلة الرومانسية على ايدي ليرمنتوف تيكراسوف - ولكنه كتب عددا كبيرا من القصائد التي اكسبت هذا البحر شميمه ووطنت دعائمه ، كما قدم عدد كبيرا من البحوث النظرية في لغة الشعر اوصى فيها باستخدام سلافية الكنيسة استخداما محدودا وفي الشعر البطولي بشكل اخص ، ودعا فيها الى اللجوء للفلسفة الحديث مع البعد عن الالفاظ النابية المستهجنة .

ومع ان اكثر شعر لومونوسوف كان في تمجيد الانتصارات الحربية التي احرزتها القيصرية اليزابيت - ابنة بطرس الاكبر - فان شعره على صعيد المعنى كان الاب الحقيقي للشعر الروسي كما كان على صعيد اللغة والعروض . ومع ان قصائده اليوم تبدو لنا هامة وربما فارغة من المعنى ، فان القليل منها ما زال قادرا على التأثير في القاريه حتى اليوم . كما اننا اذا ما قسناها بمقياس زمانها سنجد انها « تستطيع ان تقف في صف واحد مع افضل النماذج التي قدمتها الكلاسيكية الفرنسية او الالمانية الراقية ، والتي كانت تمثل المعايير الفنية لضروب مختلفة من الادب الروسي ، وبدأت بها الكلاسيكية القومية المباشة في روسيا واستمرت حتى عام 1780 تقريبا ، وكانت تحتوي على عناصر واقعية اكثر مما كان عليه الحال في البلاد الاخرى » (٧) وفي هذه القصائد نلمس جذور الاهتمام بالطبيعة في الشعر الروسي والتعبير بها ومن خلالها عن حالات الفكر والوجدان وعن صوات الروح الروسية ..

يخفي اليوم وجهه وتغطي ظلمة الليل السهول .

ويتسلق الجبال ظل اسود . وتزور اشعة الشمس عنا

ونكشف الوهاد .. الوهاد التي لا قرار لها

وتتملئ بالنجوم .. نجوم كثيرة لا تحصى

وانا ضائع ، كحبة من الرمل في موجات البحر

او ككرة من التراب في مهب العاصفة

غارق في هذه الوهاد التي لا قرار لها ، تضئني ظنوني.

في ابيات لومونوسوف هذه نلمس الاهتمام بالطبيعة واعتبارها المرأة التي تنعكس عليها حالة النفس والروح معا . ونلمس فيها بلور الاهتمام بالوصف والحركة وغيرها من العناصر الواقعية التي نماها ذلك الشاعر الذي كانوا يسمونه راسين الشمال ، الكسندر سيماروكوف (1717 - 1777) Alexandr Sumarokov والذي اغرته الطبيعة الدينية والفلسفية والسياسية لشعر لومونوسوف على تعديها « فتبنى مدرسة مفارقة في الشعر الفنائي تعتمد على البساطة الشديدة وعلى طبيعة اللغة والاسلوب ، واعتبر مؤسس شعر الحب الروسي الحديث . وما تزال لقصائده الجيدة واغنياته قوتها على التأثير بحساسيتها الفائقة وايقاعاتها الشجية » (٨) ويجنوحها الى التفلل في اعماق العشاق والى التنصير عن اشواقهم العارمة وعواطفهم الجياشة .. وبحرارة جزئياتها الواقعية وتتبعها لحركة النفس البشرية ، وباسلتهاهما للاغنيات الشعبية الروسية وعرضها الواقعي للحياة .. وفي هذا المقطع من احدي قصائده الغنائية نلمس بعض خصائصه التي اقلت بشيء من ظلها على شعر الحسب الروسي بعد ذلك ..

(٧) المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٨) ديمتري ابولينسكي من مقدمته لـ (كتاب بنجوين للشعر

الروسي) ص ٣٦ .

طويل من الفورات والثورات والانفجارات التي لم تبدأ حتى عام 1918 .. واعني بها مؤامرة الديسمبريين المشهورة عام 1825 . خلال هذا القرن اخذت اصلاحات بطرس الاكبر تؤتي ثمارها ، فهاجت روسيا بالافكار العقلانية الأوروبية وبصراعاتها الدائمة مع الافكار السلافية التي حاولت ان تشد روسيا بعيدا عن الانزلاق وراء خطى أوروبا الجامعة .. وخلال هذا القرن المليء بالصراع المشوف الى البحث عن اللغات القومية وسط تيارات الثقافة الأوروبية المتلاطمة ولد الشعر الروسي الحديث .

(٢) الميلاد .. ورحلة البحث عن الجذور :

قلت ان الشاعر الروسي المعاصر اذا اراد ان يمد يديه الى الماضي فانه لا يستطيع ان يذهب بهما لبعده من فرنين من الزمان . فالاعمال التي اشرت اليها قبل قليل لم تكن سوى التراث الشعبي الشفاهي من جهة او التراث الديني المحدود الاثر والقيمة من جهة اخرى وبدايات التأثير بالادب الغربي في الشعر المكتوب على النسق الكلاسيكي المنحدر من هوارس وبوالوا والتي ظهرت بشانها الاولى في اشعار بولوتسك او في كتابات كاتريميز الساخرة كانت اوهن من ان تكون بداية خفيفة لتراث قومي .

اما التراث الشعري في اللغة الروسية التي ينتمي اليها شاعر اليوم ، فلم يظهر بالطبع الا بعد ما اصبحت هذه اللغة الجديدة التي ظهرت في عهد بطرس الاكبر لغة الفكر والادب ، وبدأت بمددك بسنوات على ايدي ذلك العبقرى المتعدد المواهب ميخائيل لومونوسوف (1711 - 1765) Mikhail Lomonosov تكتب الصفحات الاولى في كتاب الشعر الروسي . وكان لومونوسوف - الذي يذكرنا بليوناردو دافينشي - ابن صياد من اصل ريفي ، ولكنه قبل اي شيء اخر كان ابن افتتاح روسيا على أوروبا في عصر بطرس الاكبر الذي عاش فيه فترة صباه . واعترف بفضل من مناهل العلوم الطبيعية حتى اصبح استاذاً للكيمياء في اكااديمية العلوم الروسية . ثم قام بدور فيادي في انشاء جامعة موسكو . ولم يقتصر نشاط « هذا العبقرى ذي النزعة الأوروبية الرفيعة والممثل الحقيقي لعصر التنوير على العلم ، بل امتدت معرفته من الكيمياء والرياضيات حتى اللغويات والبلاغة . وفي الادب الروسي الذي طبعه لومونوسوف بميسم الكلاسيكية الفرنسية كانت خدماته هائلة . وقد اقترح في اعماله النظرية ان تنهض علاقة جديدة واكثر عضوية بين سلافية الكنيسة واللغة الدارجة المتكلمة . ووضع اصلاحاته اللغوية المقترحة موضع التطبيق في كتاباته ، بالصورة التي اصبحت معها المؤسسة الحقيقية للادب الروسي الحديث » (٥) وللشعر الروسي بشكل اخص ، لانه استطاع مع فاسيلي تريدياكوفسكي (1702 - 1769) Vasily Trediakovsky الذي كان استاذاً البلاغة واللاتينية في اكااديمية العلوم ، ان يؤسس نظاما جديدا لعروض الشعر الروسي غير ذلك النظام الذي يقوم على المراحة بين الارتكاز على المقاطع والذي دخل اللغة الروسية عن طريق النماذج اللاتينية والفرنسية والبولندية ، وينهض نظامها على فكرة اختلاط العروض التي كانت سائدة في الشعر الشعبي الروسي . ووجد لومونوسوف « ان الشعر المنظم الذي يعتمد على تبادل النبرات والذي لا يتقيد بعدد او ترتيب معين للمقاطع غير المنبورة - كما في الالمانية والانجليزية - اكثر ملاءمة لروح اللغة الروسية . وكان هذا التغيير الهام في العروض فاتحة عهد جديد في الشعر الروسي ، وساعدت قصائد لومونوسوف كثيرا على تقدمه » (٦) . لانه لم يكتف

(٥) ديمتري ابولينسكي (كتاب بنجوين للشعر الروسي) ص ٢٥ .
The Penguin Book of Russian Verse , Introduced and
edited by , Dimitri Obolensky , London , 1965 .
P . xxx v .

(٦) هارك سلونيم (تاريخ الادب الروسي) ص ١٥ .

ادخلي كل شخص في رقصتك ، والهبي ارواح الرجال
والتي ، بوجهك الخيري الاسمر ، النار في قلوبهم
اعيدي للحياة في وقت واحد ، جنونها واحاسيسها الشهوية
وقشعريرتها العصبية ورخاوة الحب ، والفن السحري
للباخوسيات القدامى .

وفي قصيدة (عندليب في حلم) تاكد بقية ملامح شعر
درزجافين ، حيث تندغم العواطف المتوقفة بالهدم العقلي ، والعناصر
الخيالية بالعسر الواقعية والبرئية . ويرهن الشاعر فيها على
(« ايوفونية ») اللغة الروسية وجمال تناغماتها الصوتية اذ تعتمد
القصيدة كليفة على صوت حرف كما يقول اوبوليسكي . .

كنت نائما في اعالي التلال وسمعت صوتك
اوه . . ايها العندليب ، ان روحي تستطيع ان تسمعك
حتى وانا غارق في النوم .
انا يجيء الصوت ، وآونة يرجع الصدى
انا تثن ، وآونة ترن ضحكائك في اذني من غور بعيد
وعندما ارقد في حضن كاليستو ، تهجني
اغنيانك وتهدانك وصيحاتك وصغيرك في نومي الهنيء

في السنوات الاخيرة من حياة درجافين (الذي كان شاعرا
عقربا عظيما ، وكان شعره الصدى الامين لحياة الامة الروسية
والانعكاس الحقيقي لعصر كاترين الثانية) (١٠) او بالاحرى في العقد
الاخير من القرن الثامن عشر والعقدتين الاولين من القرن التاسع
عشر ، وابن حكم الكسندر الاول ، اخذت الكلاسيكية في الذبول ،
وبدت عاجزة عن استيعاب مطامح الشخصية القومية التي بدأت
تحس بكيانها عقب تنامي الانتصارات العسكرية واتساع رفعة التعليم
وانتشار الثقافة ووسائل النشر . ونحت جلد الكلاسيكية التي تعاني
من الذبول بدأت ارهاصات ميلاد حساسية جديدة ، غير الحساسية
الكلاسيكية تظن عن نفسها . وحاول الكاتب المسرحي الساخر
دينيس فونفيزين (١٧٤٥ - ١٧٩٢) اقتناص هذه الحساسية الجديدة
وهي لا تزال نغمة غائمة في الافق البعيد ، لكن محاولاته ما لبثت ان
تعرضت لاضطهاد شديد لانه عرض في مسرحياته بالوضع القائمة .
وبدأت الرياح التي تهب من الباب الذي شحبه بطرس الاكبر على
الغرب تضايق احفاده . . توشك ان تزلزل عروشهم الراسخة وهي
تنقل اتي عقر دارهم اصداها ما جلبته الاستنارة الفرنسية على عرش
لويس السادس عشر وماري انطوانيت عام ١٧٨٩ حيث سافتهما الى
المنفصلة . واخذت افكار صانعي الثورة الفرنسية التي شجعت القيصرية
كاترين من قبل ترجمة اعمالهم توفد شرارة التمرد في نفوس المثقفين .
وما ان برفت اولى التماعات هذه الشرارة في مسرحية فونفيزين
(الامل الصغير) حتى احس الحكم القيصري المطلق بنذر الخطر
الوشيك ، وبدأ يفير من نظرنه اتي المثقفين ومن معاملته لهم . .
واخذ مناي سبيريا يعرف نوعا جديدا من الوافدين اليها لن
ابث ان يتزايد على مر الايام ، وهم اصطفاء الحرية من الكتاب
والمفكرين . وبدا ان اللقاء العميم بين السلطة والمجتمع المتعلم قد
انتهى الى غير رجعة وان الحرب بينهما قد اندلعت ولن يهدأ
اوارها حتى عام ١٩١٧ وربما حتى اليوم . . في هذه العقود
المتوترة التي لن تلبث ان تسلمنا الى تخوم المؤامرة التي فتحت
الطريق امام قرن كامل من الفورات والانفجارات والثورات حدثت

انني مشتاق لرؤياك . . ولكن ما ان افعل
حتى يعتريني القلق والخوف من ان تفصحني عينا
ففي حضورك امتليء بالبليلة ، وفي غيابك بهلاني الحزن
من فرط التفكير في انك لا تدرकिन مدى حبي لك
ويجنهد الخجل في ان يدفع هواك العنيف بعيدا عن قلبي
ويجاهد الحب في ان يعصف بالخجل بعيدا
وخلال هذه المجاهدة العنيفة تقيم براهيني
وينظر قلبي من المانة والحرفة
هكذا ادفع بنفسني من عذاب لعذاب . واتوق لان افتح قلبي لك
واخجل من الاقدام على ذلك ، ولا اعرف في الواقع ماذا اريد
اعرف فقط ، اني مليء بالاسى .

وكلما توغلنا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، احسنا
بان البثور التي الفاها لومونوسوف وسيماروكوف قد اخذت تؤنسي
نمازها ، وان التقدم الثقافي والادبي في روسيا قد قطع خطوات
فصاح ، ولا سيما في عصر القيصرية كاترين الثانية (١٧٦٢ - ١٧٩٦)
التي كانت تكتب القصص والمسرحيات ، وتراسل فولتير وديور وتطلب
من رجال بلاطها ووزرائها الاهتمام الجدي بالشعر ، ونضع الكتاب
والشعراء في مناصب الحكومة الهامة ، ومنحهم المناصب ومنهمم
بالعون المادي . واستت الحكومة في عهدها دور النشر واصدرت
الجلات واستوردت الكتب الفرنسية ونظمت العروض المسرحية .

في هذه الفترة ظهر واحد من الشعراء الذين ساهموا في تكوين
الجنور التراثية التي يرتوي منها الشعر الروسي الحديث وهو
جافريل درجافين (١٧٤٣ - ١٨١٦) Gavrul Derzhavin ،
الذي ساندته كاترين فتدرج في المناصب الهامة حتى عين - في عهد
الكسندر الاول - وزيرا للعدل ولم يعرف درجافين بمهارته الادارية
وترفعه عن العيف والملق ونزاهته المرطه وجبه للعدل فحسب ، بل
عرف ايضا كواحد من اهم الذين اصلحوا بدايات لومونوسوف
وسيماروكوف والذين وسعوا افق اللغة الجديدة بعد ان اصبحت
لغة البلاط الرسمية وسيلة المجتمع المتعلم الى المعرفة . (وكان
لقصائده دوي ونغمة عريضة ، وخصوبة في الاستعارة ، وتأثير خطابي
مكتسح يهز غرف القصر الامبراطوري الواسعة التي كانت تلقى بها .
وتوحي قصائده بالقوة والحدة الشعرية . فقد استبدل بترفع لومونوسوف
الديق وغموضه ، حركة خطابية ودقة حسية . وفي بعض قصائده
رسم صورة جزئية لمعاصره ، ونجح في مضايقة السلطات بحبه
العنف للعدل وكراهيه نلظلم ، وسخل روح الاستقلال والسجاسة
الادبية كمن شعره . ومن الغريب ان هذا الموظف الكبير ذا النزعة
العقلية المحافظة اصبح رائدا للشعر المنفي الذي اكتسب في القرنين
التاسع عشر والعشرين في روسيا نغمة ثورية قوية) (٩) . ولم
يؤثر درجافين في مسار الشعر الروسي بسبب من نزوعه الدائم لضرورة
العدالة الاجتماعية فحسب ، ولكن ايضا لاحتفاء شعره بمجوعة من
العناصر الفنية التي كفلت له قوة التأثير ، مثل الاحتفاء بالضوء
والالوان والاهتمام بالتلميحات المتعددة على الكلمات المرئية ، وتوقيفه بين
عقلانية لومونوسوف وعاطفية سيماروكوف المرطه ، وانطواء شعره
على تيار العواطف القوية والمشاهد الحية المثيرة للانفعال كاغنيان
طيور العندليب او رقص الفجريات او الصور التي جرفها نبارالزمان .
وتستطيع ابيات قليلة من اي من قصائده ان تجسد لنا هذه الخصائص
بصورة ابلغ من كل وصف او تحليل . . وهذه ابيات من قصيدته
(رقصة الفجر) . .

التظني جيتارك ايها المرأة الفجربة ، واضربي اواره
وصيحي بصوت مملىء بنشوة شهوانية .

(١٠) ف . ج . بلينسكي (الاعمال الفلسفية المختارة) ص ٤ .
V. g. Belinsky , (Selected Philosophical Works , Foreign
Languages Publishing House , Moscow , 1956 ,
P . 40 .

(٩) مارك سلونيم (تاريخ الادب الروسي) ص ١٩ .

الادبية الجديدة في مجال الشعر . بل قام بهذا الدور معه
 فنسطنطين باتيشكوف (١٧٨٧ - ١٨٨٥) Konstantin Batysnkov
 الذي اشتهر بنزوعه الى احياء المايير الوثنية الهيلينية والى
 الاستفادة من التراث الاغريقي في الادب ومن مدرسة الاسكندرية
 الفلسفية . فكان ذا نزعة ابيورية « تطلب السعادة والنجاة من
 الالم .. وتضع السعادة في اللذة وتجعل فانسون الاخلاق المنفعة الذاتية
 وتقصي الالهة خارج العالم » (١٢) حس شهواني متقد مع ميل واضح
 الى التشاؤم وشغف بالتغني بجمال العالم المرئي وبالمتع الحسية
 العابرة . وكانت عواطفه الحادة وتناقضاته الداخلية التي انتهت به
 الى الجنون تكسب شعره نكهة فريدة مؤثرة ، يجمع الى جموح
 الانفصالات الرومانسية رصانة البناء الكلاسيكي وجمال اللفه الجديدة
 التي بدأت حركه تركيز السلطة تحاربها ، داعية اتي العودة
 من جديد الى سلافية الكنيسة الهجورة . لكن اشعار ايمان
 كريلوف (١٧٦٩ - ١٨٤٤) Ivan Krylov وخرافات الشعبية « التي
 كانت تقرأ بشغف من الكبار وتنفذ الى فلوب الصغار وتعلمهم » (١٣)
 ما لبثت مع انتاج هذين الشاعرين ان حسمت المعركة لصالح اللفه
 الجديدة ، او بالاحرى لصالح الرؤية الجديدة . فلم تكن المعركة
 معركة فيلولوجية بل كانت في جوهرها معركة فكرية واجتماعية . وما
 ان بنى كريلوف رؤى الشعب الروسي ولفنه وحكمته وبت من جديد
 روح الفن الشعبي الوثنية الانيمية ومزجها بواقعية الفلاح وبسروح
 الفكاهة الشفيفة والسخرية المررة وبالحكم والامثال الشعبية
 المتداولة حتى حسم المعركة لصالح المدرسة الادبية الجديدة ، ومهد
 معها الطريق لظهور الشاعر الذي كان تعبيرا عن اكتمال رحلة البحث
 عن الجذور القومية والذي تبلورت عبره ملامح الشعر والادب
 القوميين .. واعني به الكسندر بوشكين الذي صيغ من كل تيارات
 القرن الثامن عشر وخيرجت مسن مطلقه كل اتجاهات القرن
 التاسع عشر .

(٢) بوشكين .. بداية أشعر القومي وارهصاصات الثورة:

ويصير الكسندر بوشكين (١٧٩٩ - ١٨٢٧) Alexandr Pushkin
 بحق فاتحة عصر جديد في الادب الروسي . استقطب بدايات هذه
 المدرسة الجديدة ثم قطع شوطا فسيحا في طريق النضج والتطور ،
 واستوعب عناصر الحساسية الجديدة وخلق عبرها شعرا قوميا اصيلا ،
 واستلم ارهصاصات الغضب والثورة واستشرى بها آفاق المستقبل
 البعيد . لذلك كان بوشكين فاتحة عصر جديد على صعيد الشعر
 والفكر معا ، عصر احتد فيه الصراع بين الادب والسلطة في عهد
 نيقولاي الاول (١٨٢٥ - ١٨٥٥) الذي بدأ حكمه بمذبحة الديسمبريين
 المشهورة في ١٤ ديسمبر ١٨٢٥ . وفرض بها نوعا من الاستقرار
 بالرغب لعرش آل رومانوف الذي هبت العواصف في عهد احيه
 الاكبر الكسندر الاول . ووجد بوشكين نفسه طرفا في هذا الصراع
 المرير منذ بداية حياته الادبية ، فظل خوال حياة القصيرة الخصيبة
 مقلقا للسلطات ، مغنيا صوات شعبه في الاعتناق من ربة الارهاب
 والتخلف ، مخترقا حجب المستقبل البعيد ، متنسبا بالتغيير . فقد
 « كان الفنانون الروس على قدر كبير من الاحساس بالمستقبل ،
 يسمح لهم ان يتوقعوا من روسيا مثل هذه انهام ، ولم يخالجهم
 الشك لحظة واحدة في ان روسيا ، مركب كبير كتبت عليه رحلة
 بحرية كبيرة . فهم كالروح الشعبية التي ارضعتهم لم يميزوا
 ابدا بروح الحذر والاعتدال والدفة ، لان كل ما يهدد بالهلاك كان
 يحمل لهم مسرات لا توصف - كما يقول بوشكين - وقد لازمهم

اول انطفافة هامة في تاريخ الشعر الروسي الحديث .. وكانت هذه
 الانطفافة صدى لهذه التوترات الجديدة ، واستيعابا لاجته الحساسية
 الجديدة التي اطلت برफقتها ، وتعبيرا عن تشوش الشخصية
 القومية الروسية الى الجثور على هويتها الخاصة بعد رحلة
 المضاض المرهبة التي عاشتها منذ عصر بطرس الاكبر حتى اواخر
 القرن الثامن عشر .

وكانت اعمال نيقولا كارامزين (١٧٦٦ - ١٨٢٦) Nikola Karamzin
 هي البداية الحقيقية لهذه الانطفافة الادبية الجديدة ، ليس فقط
 لانه عكس تبلور ونمو الوعي القومي في كتابه الهام تاريخ « الدولة
 الروسية » والذي كان علامة فارقة في تاريخ الكتابة الروسية -
 كما يقول بيلينسكي - ولكن ايضا لانه استطاع في قصصه
 الحزينة المؤسفة - وخاصة (ليزا المسكينة) - ان يثر على النعمة
 الادبية التي خرجت بالادب الروسي من عنق الزجاجة الكلاسيكية
 المحطمة ، وان يبدأ تلك الرومانسية الماطفية الحزينة في
 قصصه المليئة بتنهات العذاري واشواق الفارقين في العشق
 واحزان الحب غير المتبادل . وتسلم فاسيلي جوكوفسكي
 (١٧٧٢ - ١٨٥٢) Vasily zhukovsky الخيط في مجال الشعر ،
 وبدأ به حوالي ١٨٠٨ ما يسمى بالعصر الذهبي للشعر الروسي ،
 منمردا على الطريقة الكلاسيكية الفرنسية ، مستفيدا من الامسال
 الرومانسية الانجليزية وخاصة اعمال شكسبير وبيرون . وحتى يخلق
 مناخا ثقافيا يستطيع ان يتقبل اشعاره او بالاحرى يتنوقها عمد الى
 ترجمة الوديسة ومدد من اعمال لوسيان وسكوت وبيرون وجوتسه
 وشيلي وصفار الرومانسيين الالمان في واحدة من اعظم الترجمات
 الروسية واكثرها اشراقا . وخلق عبر عوالم هؤلاء الرومانسيين تيارا
 من الرؤى الجديدة والافكار الجديدة والتراكيب الشعرية الجديدة .
 واستفاد من هذه الرؤى وتلك التراكيب في قصائده الجيدة القصيرة
 وهرائية الشجية التي اثرت في معاصره كثيرا والتي لا يزال بعضها
 يقرأ بشغف حتى اليوم . « ويصير جوكوفسكي بحق مبدع القاموس
 الشعري واللفه الشعرية التي استمرت فاعليتها طوال القرن
 التاسع عشر ، ويقيم شعره الجسر الذي يربط بين الفنائية
 التقليدية لدرجاين وبواكير اعمال بوشكين الشعرية » (١١) وتتميز
 قصائده بالبساطة والتوهج وقوة الايقاع ، وبالاختفاء بالالوان والحركة
 وبالشغف بتصور مناظر الطبيعة في تماكبها وتفاعلها مع
 عواطف المحبين وتنهات العشاق . كما اهتم في قصائده الوطنية
 بالمشاعر والقضايا القومية لعصره ومواطنيه . وهذه واحدة من
 قصائده القصيرة التي يصف فيها تحطمة فراق بين عاشقين ،
 وتحمل القصيدة عنوانا غريبا على عناوين القصائد في هذا الوقت ،
 وهو (١٩ مارس ١٨٢٣) ربما كان تاريخ هذا الفراق الحزين الذي
 تريد القصيدة ان تهيه الخلود ..

لقد فهمت قبلي في صمت ،
 وكان الحزن في عينيك مثلما بالمشاعر ،
 فذكرتاني بالماضي الحبيب ،
 كانت تجربتك الاخيرة في هذا العالم ،
 ورحلت كملاك صامت ،
 وكانت احزانك مسالة كالسما .
 وكل الذكريات الارضية ،
 وكل الافكار السماوية المقدسة هنا ،
 نجوم في السماء ، والليلة هادئة .

ولم يعمل جوكوفسكي وحده على ترسيخ ملامح هذه المدرسة

(١٢) راجع د . ابراهيم بيومي مذكور كرم (دروس في تاريخ
 الفلسفة) ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٤٢ .
 (١٣) راجع ف . ج . بيلينسكي (الاعمال الفلسفية المختارة)

(١١) ديمتري ابولينسكي من مقدمته (لكتاب بنجوين للشعر

الشعور بالقلق والجهل بالمد في كل مكان وكانت المسألة بالنسبة لهم ، كما هي للشعبي اعماق احلامه ، هي : كل شيء او لا شيء . لقد كانوا يدركون انه لا يجدر التفكير الا بما هو رائع ، مع ان الراءع امر صعب كما علمنا «فلاطون» (١٤) ولم يكن بوشكين واحدا من هؤلاء الفنانين المتطلعين الى المستقبل الحالمين بالامور الرائعة الصعبة فحسب .. بل كان رائداهم جميعا .. به بدا هذا الاتجاه وبه بدأت رحلة السفينة الروسية صوب العلم والثورة .. وحتى نتعرف على دور بوشكين الكبير في بلورة الطابع القومي في الشعر وفي التعبير عن ارهاصات الثورة المخترنة في النفوس لزمنا رحلة سريعة مع حياة الشاعر القصيرة العاصفة .

٥٥ .. لماذا لا تحفر كلماتي القلوب على الفضب ؟

ولماذا ينبغي على هذه الشملة ان تتوهج عبثا في كياني ؟

ولماذا لم اوهب الفصاحة ؟

هل امعش حتى ارى شعبي حرا ؟

متى تكسر قيود العبودية البيضاء التي امر بها القيصر ؟

متى يشرق في سماء وطني فجر الحرية الجميلة الخالصة ؟

بهذه التساؤلات التي تشتهي التغيير والمستقبل يهتم بوشكين فصيده الشهيرة (القرية) .. ويتوج بها ذلك التناقض الصارخ - الذي تجسده القصيدة - بين جمال الطبيعة الخلاب وخبج العلاقات الانسانية الجائرة التي تفرض سيطرتها الفاشمة على روسيا القيصرية في هذه الفترة .. فترة حكم الكسندر الاول ثم اخيه نيقولا الاول من بعده . وتلافي التناقضات وتصارعها في هذه القصيدة هو افضل الداخل الى حياة بوشكين وفنه .. ففي حياته كانت تتصارع الدماء النبيلة الزرقاء مع الدم الزنجي الحار ، الولاء للنظام الامبراطوري مع الكراهية الحادة للقيصر ، الاحساس العميق بالذات مع النوبان الصوفي في الله ، الانتساء بجمال الطبيعة مع العذاب بما في الفرى الروسية من جور وبشاعة ، الارتواء النهم من كل ينابيع الحياة مع العزوف المرضي عن هذه الحياة ، الارتداد الى لغة الشعب البدائية مع الخنين الى ان يسوس هذه اللغة في شعاب الشعر حتى تتبلور وتشف . من تلافي هذه التناقضات وتصارعها ولد دور هذا الشاعر الكبير ، بعد ان ولد هذا الشاعر الزنجي الملامح في ٢٦ مايو ١٧٩٩ لاب من اشراف روسيا يدعى سيرجي ليفوفيتش بوشكين ولام جميلة (ناديجدا اوسيبوفنا) تنحدر من صلب عبد حبشي هو ابراهيم هانيبال ريب بطرس الاكبر وفاند جيسه . واغترف الشاعر منذ طفولته من مجموعة من المنابع المعرفية الخصبة .. من حكايات جدته لأمه التي كانت تجوب فيها سهوب سيبيريا وادغال افريقيا ، ومن الاغنيات الشعبية الروسية التي كانت تفتنى بها مربيته .. ومن عالم المكتبة الفرنسية الكبيرة التي كان يفتنيتها ابوه والتي فنن بها الشاعر وهو يبلغ العاشرة حيث فرا فيها بولتارك وهو ميروس ولافونتين وموليير وراسين وفولتير وديدور . ومن شوارع موسكو وباحاتها الشعبية واعيادها التي يلعب فيها الممثلون ذرو الاقتعة الزائفة والشعور المستعارة والتي كان يصحبه اليها مربيته ، والتي شهد فيها التهرج الشعبي الروسي وهو يلتقي في وجدانه بدعابات مولير الطريفة ويتناقض معها . ويرده الى اللغة الروسية التي كاد ان ينساها في غمرة فنتته بعالم المكتبة الفرنسية . فتصادم في وجدانه الثقافة السلافية مع الحضارة الغربية وتمتزج بها .. من هذه الثنائية وهذا القلق ولد صوت لم يسمع له مثيل من قبل ، صوت حنس صاحبه منذ البداية انه مرصود لدور كبير لعب عن شني هذه المنابع المعرفية بنهم وفهم واشتياق .

وما ان بلغ الثانية عشرة حتى بدأ يكتب الشعر بالفرنسية ، والتحق بالمعهد الامبراطوري في تسارسكويه سيلو حيث اكتملت بقية عناصر ثقافته .. اذ تعرف بوشكين في هذا المعهد على عالم آخر غير عالم الاداب الكلاسيكية والقصص الملية بالخوارق ، وهو عالم الفلسفة المثالية والنزعات العقلية .. حيث كانت تردد في جنبات هذا المعهد الذي اسسه الكسندر الاول اصداء من الفلاطون وديكارت وتوما الاكويني وسبينوزا وليبنتز وديدور وفولير ولوك . وفي هذا المعهد تتلمذ بوشكين على دى بوردي - شقيق الزعيم الشهيد جان بول مارا - الشبع بفكر الثورة الفرنسية وعنفها . وفيه ايضا تحرر من انطوائه وعزله . وتعرف على اهم اصداقه عمره .. بوشين ودلفيج وكوساكوف واوليير بيوتر فيزييمسكي - وكلهم من الشعراء وان لم يتميز منهم في تاريخ الشعر الروسي سوى البارون انطون دلفيج (١٧٩٨ - ١٨٢١) Baron Anton Delvig والامير بيونسر فيزييمسكي (١٧٩٢ - ١٨٧٨) Prnce Petr Vyazemsky

- مع هؤلاء الشعراء انطلق بوشكين يصب من الفكر والادب ويتبارى في نظم الشعر .. وما ان حان ميعد تخرجه عام ١٨١٥ حتى كان قد قطع شوقا طويلا على درب الشعر العسير . فلما استمع درجاتين الى قصيدته (ذكريات تسارسكويه سيلو) حتى هب صارخا « انا لم امت .. انا لم امت .. هذا هو درجاتين الجديد » (١٥) .

والحقيقة ان بوشكين لم يكن مجرد درجاتين جديد ، وان كان فيه قدر كبير من نزاهة درجاتين وحبه للعادلة .. فقد تجاوز كل من سبقه من الشعراء الروسي منذ البداية بمنهجه الجند واكتشافاته العبقرية وبصيرته النافذة ، وببساطته المهشمة المتحررة من كل قيد بلافي مزخرف والتي يتبدى معها الشعر وكأنه فيض تلقائي من العواطف النبيلة المتدفقة . بهذا الاسلوب الجديد الذي تناق حروفه بساطة أسرة غنى بوشكين عقب تخرجه من المعهد الامبراطوري للثورة المبهمة ، وتحسس بقصائده ملامح الجنين الذي ينبض في رحس الظلم والفهر والاستبداد القيصري . واخذت الثورة تفره ، ويناديه صوتها المنبعث من كل المظالم البتوت في محيط الانليجنسيا الروسية عسكرية كانت ام مدنية ، فيكتب بوفرة وخصوبة والطح .. ويكتب في (نشيد الحرية) الذي صار شعارا لكل الجماعات الثورية بالمدينة في هذه الفترة :

انني اريد ان اغني للحرية

ان افضح الشر المتربع فوق العروش

يا ابناء الحظ الاعمى ، يا ظفاة العالم ، ارتعدوا

هان شيئا بعد اليوم لن يستطيع حمايتكم

لا التهديد ولا الوعيد ، لا مذابح الهياكل ولا السجون

كونوا البادئين اذن بحني رؤوسكم امام قوة القوانين الثابتة

ها هو يقذف بالقفاز علنا في وجه عدوه ويدعوه للمبارزة .. فهل

تراهم سيسكنون ؟ لقد تلقف حرس انقيصر هذه الاشعار بخوف واعدة

وقد احسوا انها تنادي الكارثة وتمهد لها ، وتلقفها منهم القيصر بقضب

وامر بنفي الشاعر الى الجنوب عام ١٨٢٠ . وفي المنفى انفتح وعسي

بوشكين على عالمين جديدين متناقضين عالم القرية الروسية الجائبة

تحت اقدام الفئاة الفليظة ، المثقلة بالفقر والجور والوحشية ، وعالم

التوقاز بجبالها البيضاء المهشمة وهوائها العاصف ومياها المتدفقة

يبين شقوق الاحجار العميقة . عالم الطبيعة الخلابية والانسان

المطحون .. هذا هو العالم الذي غناه بوشكين في قصائده المنفى في

(ينبوع باخشي سراي) و (اسير القوقسيساز) و (السحب)

و (حوريات البحر) و (المعجز) و (الشيطان) و (الرياح) ..

تلك القصائد الرومانسية المترعة حزنا المشتعلة حينما الى الطبيعة

(١٥) راجع هنري ترويا (بوشكين) ترجمة الدكتور فؤاد ابوب ،

دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٦ ، ص ٤٤ .

(١٤) الكسندر بلوك (المثقفون والثورة) ترجمة يوسف حلاق ،

مجلة (الموقف الادبي) عدد اكتوبر ونوفمبر ١٩٧٢ .

ان وحدة الزمان والمكان تؤدي الى وحدة الالهام فيها . وتكسر فضاء هذه المرحلة اللغوية فضلا عن صوات روسيا هوم التساير وآماله . فافكار الموت والحب والقلق ، ترد فيها دونما انقطاع (١٧) وظلت هذه الافكار التي تردت في اشعار بولنديو الذاتية هي الواقع الذي عاشه الشاعر في السنوات الست الباقية من حياته . اذ عاد عام ١٨٢١ الى بطرسبورج وتزوج وعاش حياة مثقلة بالقلق والعذاب حتى فضى في ٢٩ يناير ١٨٢٧ على اثر اصابته في مبارزة - نبذ بريئة في الظاهر وتنطوي على مؤامرة او جريهه في الواقع - مخلفا وراءه اعظم انفراف ، محققا في سنوات حياته القصيرة المثقلة بالنعي والعذاب الكثير من الانجازات .. تحرير الشعر من رعبه البلاغية .. العوده الى منابع الطبيعة الاولى .. البحث في اعوار التاريخ عن اصل والاسطورة .. تمجيد الثورة والفرسية والعدالة .. تكريس الادب سلاح من امضى اسلحه الانسان في مسيرته نحو تحريره .. اتساف اجنه المستقبل وهي تتشكل في رحم الحاضر بقوة ومضاء .. حقق كل هذا لانه استطاع « ان يحقق الموازن الكامل بين الشكل والمحتوى حيث تمزج لديه الطبيعة المسئلة الخلافة مع دفة عظيمة في التعبير تلعب ، اذا جاز ان نقول ، درجة الدقة الرياضية الصارمه . وحيث تلافي على درجات معاونه من الانسجام والناسق ، الصوفيه الجديدة بصفتها آسسلاما تلاما في الله ، مع الوثنية القديمة بصفتها تاليها للانا في البطولة » (١٨) لكل هذا استطاع شعره ان يكون التبشير الحقيقي بثورة الشعر في القرن التاسع عشر . والصوت الهوي الذي خرجت من اهابه اهم التصورات والرؤى التي نهل منها الشعر الروسي حتى اليوم . فقد كان بوشكين شاعرا للمستقبل لا شاعرا للحاضر وحده . وقد ادرك هو وبسط عنادات النبي والفهر والملاحمه هذه الحنيقة وتعزى بها عندما كتب ..

لسوف يسمعون بي في كل اركان روسيا العظيمة
ولسوف يلهج باسمي كل لسان
ولسوف يحييني قومي طويلا
لان فيثارتني هزت جميل المشاعر
ولانني غنيت للحرية الاناشيد ، في زماني العاني
وناديت بالرحمة من اجل القهورين .

وقد يبدو اننا نرىنا طويلا ازاء حياة بوشكين القصيرة العاصمة وموهبته الخصبه العاوية . ولكن ذلك كان ضروريا لان بوشكين ظل الحرف الاول في ابجدية الشعر الروسي لدى كل الاتجاهات .. لدى الاتجاهات الرسمية ولدى الخارجيين عليها على حد سواء . بنهائه الجميع وزعموا بانه الجنر الاصيل لهم . ولانه استطاع ان يجعل الشعر نادرا على استيعاب « صورة المجتمع الروسي عبر لحظة شائقة من لحظات تطوره » (١٩) . ولان هذا الترتيب كان ضروريا حتى نتعرف على كل الروافد التي ستصوغ مسيرة الشعر الروسي حتى اليوم .. فمن صدامه الدائم مع السلطة بدأت رحلة الشعر الروسي الدامية في مواجهة الفهر السياسي وطبعت هذه الرحلة الشعر بميسم واضح حتى اليوم . ومن شغفه بالطبيعة ولدت اجنة تيار حي ومتجدد في الشعر الروسي لجأ الى الطبيعة ترفعا عن ابتذال موهبته مرتفعا لتعبير اخرى رؤوية فلسفية وصوفية للعالم ثالثة . ومن موقفه من فضيته العدل والحرية ينحدر تيار كاسح من الشعر الروسي الذي اوقف جل اهتمامه على القضية الاجتماعية والاقتصادية وربما الادارية ايضا . ومن مسيرة حياته الفاجعة تشكلت الحروف الاولى في رحلة العناق الدامي بين الحيوية والمساوية في تاريخ الشعر الروسي - التتمة على الصفحة ٥٠ -

وبوره على الحضارة وبمردا على تلك المواضعات الاقطاعية الجارية ، وادراكا عميقا تلاهي المتناقضات وتصلحها في هؤلاء المسوم اللعوبين اللعوبين المائرين الطيبين الكرماء .. منتهم مسمل الطبيعة الكريمة الرهيبه التي يحيط بهم . واذا كانت اغلب اعمال سنوات المنفى الاجباري متقلة بالرومانسيه مسبعة بالحنين المتسبب الى الطيبه فابها لم نحل من تمار ذات مدق مفاير .. فقد كتب في هذه الفترة ايضا (مقامرات جبرائيل) الطافحه بالهرفهه (والتحجر) المهدهة الى برونس وشانوب كوردي والتي نجد الاعيال السياسي (و) (لوشاح الاسود) والفصول الاولى من (اوجين اونيچين) التي ستستغرق كتابتها سبع سنوات كامله . كما كتب ماساهه الشعرية الاولى (بوريس جودونوف) والتي كانت بحق شهانه اتيلا للمسرح الروسي .. وما ان انتهى بوشكين من هذه المسرحيه عام ١٨٢٥ حتى مات الكسندر الاول ، ونوبى نيغولاي الاول العرش بعد ايام من القلق شجعت المتعفين على اول بورة مجهضة ، اذ اجهز عليها الفيصر في ١٤ ديسمبر بعنف دموي ، واعدم بعض زعمائها ونفى الاخرين الى سيبيريا . وكان ضمن ممن ارسلوا الى المنفى صديق بوشكين وزميل دراسته الشاعر بوشين . وكان هذا الاجهاز اتعيف على الرومانسيه السياسيه التي تمنها الحركة الديسمبرية ايدانا بالناعب التي سواجهها الرومانسيه الادبية بعد فيليل .

فيعد عامين من هذا التاريخ الدامي يستدعي الفيصر الشاعر الى موسكو ، راغبا في احواء توريته والاستفاده من شعبيته . ويسارع الشاعر بلبية الدعوة ويعرب عن امتنانه بها ، فيظن انفيص ان البركان قد خمد ، وان جهوح النياب قد بخل عن اندفاعه لتعقل الكهولة العادمة .. لكن هيهات ! فما هي (بوريس جودونوف) تثير سخط الفيصر عندما ينشرها الشاعر في موسكو ، تم ها هسي قصيدة (١٤ ديسمبر) بوفد المدبحة التي حسب نيغولاي انه قد واراها التراب ، وبمدها تجرد (اندريه شينيه) النسبي كتبها عن الثورة الفرنسية و (الانتشار) التي يسخر فيها من فكرة الحكم المطلق و (الرعاع) التي يدين فيها ملق الحاشية واستخذاء الحكومه . وبسبب هذه القصائد الحادة كالتشطايا الجريئة كالصاعقة ، انطلقت حول الشاعر الدساس وحيكت المؤامرات . فلم يملك ازاءها سوى الهرب الى بطرسبورج ، لكنه لا يلبث ان يصود . فقد توحد الشاعر والبطل في بوشكين .. فاذا كان الشاعر هو بطل التأمل فان البطل هو شاعر الفعل . وبوشكين هذه الفترة كان الاثنين معا ... التحني والفناء .. وفي ضوء هذا الامزاج العميق بين الشعر والثورة كتب بوشكين اهم قصائد هذه المرحلة .. (النبي) و (الفارس البرونزي) عمجدا للفعل الثوري مهما كانت عاقبته ومهما تعقب الفشل خطاه . وكانت الفارس البرونزي كما يقول بلينسكي (١٨١١ - ١٨٤٨) « هي الابداع الفني في اسمى درجاته . فانت لا تعرف الا الذي يدهشك في هذه القصيدة التاريخية : اروع الوصف وجدته ام البساطة في التعبير ، فالانسان مما يلفسان ارفع مراتب الشر » (١٦) .

وبعد هذه القصائد الحادة التي البت عليه الفيصر وحكومته ، قرر بوشكين ببله ارادته هذه المرة ، العوده الى منفاه الاختياري ، فرحل الى بولنديو عام ١٨٢٠ غير عابيه بوباء الطاعون الذي كان يجتاح المنطقة ، وامضى فيها عدة شهور كانت من اخصب فترات حياته ، حيث اكمل (اوجين اونيچين) وكتب (الفارس البخيل) و (دون جوان) و (القرية) و عدة قصص نثرية منها (ناظر المحطة) و (ابنة الضابط) و (ملكة البوسنوي) الى جانب مجموعة من المحاولات المسرحية القصيرة منها (الوليمة) و (الضيف الحجسري) و (موزارت) و (سالييري) . وكانت اعمال بولنديو من اعرق اعماله الشعرية واكثرها نصجا ، ذلك لان « آثار بولنديو محتواة في حالة نفسية واحدة ، اذ

(١٧) هنري ترويا (بوشكين) ص ١٧٧ .

(١٨) المرجع السابق ص ١١ ، ٣ .

(١٩) راجع ف.ج. بلينسكي (الاعمال الفلسفية المختارة) ص ٢١٢ .

(١٦) راجع نجابي صديقي (بوشكين ، امير شعراء روسيا) دار

معارف ، القاهرة ١٩٤٥ ص ١٠٢ .

الحديث . ومن احتفائه بالطابع القومي والاصيل وولعه بخدمة اللغة وهو يستخدمها ولد التيار القومي في شعر تلك الامه المتصدرة القوميات واللغات . ومن صوفيته الجديدة نبعت المدرسة الرمزية التي اتخذت من كسوف الشاعر الرؤوي والفيلسوف الصوفي سولوفيوف مدخلها الى الفن والحياة .

(٤) ذروة الرومانسية .. وأجثة الرؤى الجديدة :

نعود الآن بعد هذا التريث الضروري عند بوشكين لتواصل رحلة التاريخ مع التسمر الروسي من حيث تركناها ، عند معاصري بوشكين . فقد كان كل من جوكوفسكي وباتشكوف وكريلوف من معاصري بوشكين ، كما كان هناك عدد آخر من الشعراء الذين نطلق عليهم اسم (جماعة بوشكين) .. وكانت تضم هذه الجماعة بالإضافة الى زملاء بوشكين في الدراسة ، بوشين وكوساكوف ودلفينج - الذي احتفظ بنفسه بعيدا عن الرومانسية الجديدة - وفيزيسكي ، ايميجين بارانينسكي (١٨٠٠ - ١٨٤٤) Evgeni Baratynsky الذي كان يعالج في اشعاره الافكار المجردة ويتناول الموضوعات الماخوذة من الفلسفة المثالية ويعطي الخيال دورا رئيسيا في اعماله . ونيفولاي يازيكوف (١٨٠٢ - ١٨٤٦) Nikolay Yazykov الذي نحا منحى مفايرا فاكه ايقورية باتشكوف ومزجها بروح سلافية عميقة وغرق في اشعار اللذة والخمر والنساء ، فأطربت فصائده القوية الرنانة الحيه الايقاع بحجمات المراهقين الروس طيلة قرن من الزمان . والكسي كولتزوف (١٨٠٩ - ١٨٤٢) Alexy Koltezo الذي بدت فصائده البسيطة الساذجة ساحرة كالأزهور البرية والذي حظي ولعه بالتركيب الشعبية باهتمام وتقدير كبيرين ، لانه كان من وجهة النظر الرومانسية ، تعبيرا صادقا عن الروح القومية الاصيله ، وديمري فينيتشوف (١٨٠٥ - ١٨٢٧) Dimitri Venevitinov ذلك الطفل المرعب « بمفترته الناصجة الباكرة على الجمع بين التامليه الميسافيزيكية الالمانية وصوت بوشكين الروسي » (٢٠) ، أو بين الشكل والفكرة والاحساس كما يقول بلينسكي . وبدوره القصير في رسيخ رؤى سلفه الشاعر الصوفي بوبروف (١٧٦٠ - ١٨١٠) وفي التمهيد لتجذور التي سيستلهمها الرمزيون بعد ذلك بسنوات وسنوات . من هذه المجموعة الكبيرة من الشعراء المنفردى المواهب تخلفت ملامح الرومانسية الروسية وازدهرت وارث في قطاع ريفس من الفراء وجذب للساعر دورا كبيرا في المجتمع الذي يعيش فيه ، ولم تكن الرومانسية الروسية كغيرها من رومانسية أوروبا .. بل كان لها مذاقها الفريد . كانت تؤمن بالالهام الفردي وبأن الشاعر تكرر لانا الخالق اللاتماهي - كما يقول كوليردج - وتميل الى الفصائل الفانيية القصيرة ونحن الى الطبيعة ، وتتمرد على السنن الكلاسيكي في اللغة والتجربة الشعرية ، ونضيق بمواضع العصر الجائرة ، كرومانسيات أوروبا . ولكنها كانت تمزج غضبها وتوربها الفريده بس اجتماعي شفيف ، وطعم عناصرها الرومانسية الخائصة بنده طبيعية مرة وواقعية اخرى . وكان اكله بصير عن تفردنا وجموحها مما ذلك اتساع الذي لمع كالشهاب فجأة في افق الشعر الروسي غداة موت بوشكين ثم اختفى بعد قليل .. واعني به ميخائيل ليرمنتوف (١٨١٤ - ١٨٤١) Mikhail Lermontov الذي طلع على الناس وسط حصار الصمت المصروب حول مصرع الشاعر بتلك القصيدة الصارخة (عن موت شاعر) عشية موت بوشكين يرثيه ويستصرخ الناس للانتقام له ..

اقتصوا من الجريمة ..

لكي لا تخجل الاجيال القادمة من جين ابائها ، وحتى لا يتحصن الذين يعشون بمقدساتنا خلف حماية القانون الكاذبة .
فما من شيء يملأ فراغ القلب الذي انسحق منه ، وما نام هناك اله خالد عادل ، فسيظل غاضبا كلما صلينا له ، « اذا لم ننتقم من هذه الجريمة ، وسيرد على صلواتنا في غضبه لتفض ينابيع اغنياتكم ، لانكم عجزتم عن تكريم شاعركم ، ولن ارسل لكم شاعرا اخر بعد اليوم .

بهذه القصيدة الجامعة التي اندمعت كالنيران بين شغفي بطرسبورج بدأ نجم ليرمنتوف يلمع في افق الشعر الروسي وهو لما يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره وبدأ سخط الفيسر عليه في نفس الوقت فانزلت رتبته - حيث كان ضابطا بالحرس الامبراطوري - وارسل الى الحطوف الامامية في الفوقاز . « وقد عاش ليرمنتوف بعد ذلك التاريخ اربع سنوات محسب . ولكنه كتب في هذه الفترة القصيرة افضل فصائده الطويلة : (اغنية الفيسر ايفان فاسيلفتشي) و (الشيطان) و (ميتسوري) و (حكاية للاطفال) وكل دواوينه الشعرية ومجموعاته الفانيية ، المهشه بموسيقاها وبخيالاتها المرتية المثيرة للمواطف ويتنوعها وبكمالها البنائي وبوضوحها الشفيف الذي يتم عن قوة الموهبة غير المحدودة » (٢١) كما كتب فيها ايضا رائعه (بطل من زماننا) التي كانت ابرع تصور قدمته هذه المرحلة للبطل الروماني الملهم بالحوية والسورات المحببة في دولة نيفولا الاول البوليسيه ، كما كانت تجريدا لهذا النمط الرومانسي من غلالته السحرية الجذابة الخادعة ، وتعريه لروحه حتى الاعماق ، بالصورة التي بدأ فيها وكان ليرمنتوف مثل هابني مصمم على معالجة البطل الرمانسي على أنه حالة مرضية فعلية بوصفه طرازا اجتماعيا ومشكلة اخلاقية ونفسية ، او بالاحرى على وضع بطله انفرادي من كل قواعد وشرايع السلوك الاجتماعي في مواجهة الواقع الاجتماعي اكتئيب باكمله . لان رومانسية ليرمنتوف تمثل بطافة عنيفة على التمرد وبوعي عميق بتردي المجتمع الذي يعيش فيه في هاوية التحلل ففسد اعراب في عدد من اعماله الشعرية « عن اسنيانه العميق لوضع المجتمع المحيط به . وصرح لمعاصره عام ١٨٢٨ بمخاوفه قائلا : « بقلب مغمم بالحزن ارباب جيلنا ، واستشعر مستقبله المساوي الاسيف » (٢٢) . كما تمسجت رومانسيته بهيل واضمح الى الاعتراب من منابع الاغنيات الشعبية والى الاحتفاء بتركيب اللغة المتعامة والامثال العامة ، مع احساس قوي بفداحة المسئولية تجاه القاريء . جذب بموهبته التي قاومت اي نزوع الى القاييد انتباه الجميع منذ ظهورها الباكر ، والتي استطاعت ان تلعب دورا بارزا قبل ان تضطر الى ان توضع في مكان مواضع - كما يقول بلينسكي - ومكنه من ان يسبر اغوار الروح الروسية وان يواصل رحلة بوشكين - الذي تعلم من حرفيته الكثير - لتأصيل الطابع القومي للشعر الروسي والالتصاق العميم باللغة الروسية بالصورة التي « لا يمكن معها لاي رجدة ان تنصف اعمال بوشكين او ليرمنتوف ، مهما كانت هذه الترجمة بارعة وامينة . والسبب واضح ، فاعمال بوشكين وليرمنتوف تكشف عن روح روسية خائصة ، وعن وضوح وايجابية العقل الروسي وعن استفادة وعمق المشاعر الروسية . وهذه القدرات متعددة المعاني والدلالات بالنسبة لكل من الروس والاجاب » (٢٣)

(٢١) . أندرونيكوف (ميخائيل ليرمنتوف) مجلته (الادب

السوفيتي) الشهرية عدد سبتمبر ١٩٦٤

Soviet Literature monthly . September 1964 . (Mikhail Lermontov) I . Andronikov .

(٢٢) الكسندر هرزن (الاعمال الفلسفية المختارة) ص ٤٩٣ . A . Herzen (Selected Philosophical Works) .

Foreign Languages Publishing House , Moscow , 1956 , P . 493 .

(٢٣) ف . بلينسكي (الاعمال الفلسفية المختارة) ص ٣٦٥ .

(٢٠) ج . م . كوهن (تاريخ الادب الغربي) ص ٢٦٢ .

J . M . Cohen , (A History of Western Literature) Penguin Books , London , 1956 , P . 262 .

لكن « بوشيف نفسه كان قليل الاهتمام بكتابه ، فلم يقرأ أبدا مسوداتها . وسمح لنورجيف بان يزيل منها ما يرى فيه شيئا من النشر العروضي . وكانت قصائده التي تغلبها الرمزيون - فيما بعد - أكثر مما تغلبها معاصروه ذات جمال دائم وسحر متجدد » (٢٥) فقد كان شعره من طراز لتسعر الذي يكتب للمستقبل أكثر مما يكتب للحاضر . فمن قصائد المحكمه الغامضة الشفافة ومن دينه اندي احيا فيه المسيحية السلافية ذات الطابع البيزنطي واكسبها بمسدا فلسفيا جديدا تكونت الاجنة الاولى للرمزية الصوفية الروسية التي ما لبثت ان اعربت عن نفسها بوضوح في اواخر هذا القرن .

واذا كان وجود بوشيف المستمر بالخارج قد جعله بعيدا عن اصطراع الافكار في روسيا ، فان الشعراء الذين عاشوا مرحلة الفيلسان الفكري الذي عاشته روسيا في العقود الثلاثة التالية لموت ليرمنتوف تم استطيموا ان يتجنبوا الانخراط في دواماتها ، وعانوا من اضطهاد حكومة نيقولا الاول قبل انهيارها في حرب القرم . وانشوا بانتصار الاتجاهات التحررية النسبية في عصر ألكسندر الثاني حيث كللت بالفاء الرق وتحرير الاقنان واصلاح القضاء والغاء القيود على الصحافة والتمسك وزيادة الحرية الاكاديمية بالجامعات والوساسم في التعليم . في سنة ١٨٤٦ الميرة ليرمنتوف نيكراشوف (١٨٧٢ - ١٨٢١) Nikolay Nekrasov الكونت اليكسي تولسوي (١٨١٧ - ١٨٧٥) Cont Alexéy Tolstoy وافاناسي فيت (١٨٢٠ - ١٨٩٢) Afanasy Eet وابولون جريجوريف (١٨٢٢-١٨٦٤) Apolon Grigoriv

وياكوف بولونسكي (١٨١٩ - ١٨٩٨) ومجموعه اخرى من الشعراء الذين توزعوا بين مخلف الاتجاهات الشعبية والاصلاحية والقدميه والثورية التي ماجت بها المرحلة . وكان نيكراشوف اكثر هؤلاء الشعراء شهرة في السنين والسبعينات يميل الى ان يكون شعيبا ، ويؤمن مع التسعينين بضرورة الاتجاه صوب الاشتراكية والاعتماد في تخفيها على جماهير الشعب الفلاحية . لذلك ترك ضيقه الاقليمي للفلاحين وذهب الى بطرسبورج وانغمس في جياقراع العاصمة الروسية وعانى معهم الجوع والفقر وكسب كثيرا وانفق كثيرا واشرف على تحرير المجلات ونشر اعمال كبار الكتاب واضطلع بدور كبير في حياة روسيا الادبية . وقد جنح في شعره الى تبني اللغة الدارجة والى التعبير عن اشواق الملايين واحزانهم ، وكانت « شعراء الاجتماعيه وقصائده الاعترافية ، استمرارا للاتجاه الاخلاقي الذي يتميز به الادب الروسي . وتناولت سلوك الانسان في المجتمع ، واستجلت انحرافات الضمير التي تنجم عن البيئة الاجتماعية او المسؤولية السياسية . وكانت مادة شعره ولقته شديدي التحدي . وعالج موضوعات معاصرة فتحدث عن الطرق الحديدية والعمل اليدوي ومسكرات السجن وملاحي الفولجا . وقد صاحب الفرض الاجتماعي الواضح في هذا الشعر جراءة في التعبير ، اذ عمل عامدا على تجريد اللغة من شاعريتها . وكان استخدامه للتلميح والتفاصيل الواقعية اسلحته في الكفاح ضد العرف الرومانسي » (٢٦) ولذلك فقد استطاع نيكراشوف ان يعيد الى الازهان من جديد خلاوة بوشكين وعذوبة شعره ، عندما اخذ يتغنى بالطبيعة ويعبر عن تعاسة مواطنيه وشقايمهم ، ويتحدث عن (النساء الروسيات) زوجات الديسمبريين وهن يتبعن ازواجهن الى المنفى في سيبيريا في قافلة معذبة حية حفرتها قصيدته في اذهان الجميع . ولاحق من قصائده رائحة الفلاحين حسب تعبير عزيز على نقاده من النبلاء الذين كانوا يتحدثون عنه بسخط وترفع . وهذه الابيات من قصيدته (في القرية) تفصح عن أسلوبه الشعري وعن ميله الى مشاكلة الواقع وبعده عن المؤثرات الرومانسية :

- طاب صباحك يا عزيزي

ومن هنا كان الذاق والدور المحلي لاعمال ليرمنتوف كبيرا للغاية برغم حياته القصيرة العاصفة ، نسي انتهت بنفس الطريقة التي انتهت بها حياة بوشكين ، هي مبارزة بسبب امرأة ، والتي اكسد عبرها القيم التي ارساها بوشكين . قيمة الارتباط بالحرية والوقوف ضد السلطة الفاشمة . وقيمة الارتباط بالارض واستيعاب تطلع الذات القومية الى الطابع الخاص والمميز . وقيمة التمرد على اندرسة الكلاسيكية الجديدة واستشراق ملامح رؤى ادبية جديدة . وفيه الامل بالتغيير وبالمستقبل . وفي « قصائده الفنائية ، كانت السموات الزرقاء تلوح من خلف السحب العاصفة المنكسرة . وكان يحن الى التهانن مع الله برغم مديحه الدائم لثورة التحدي الراقية . وعلاوة على ذلك فقد اظهر ليرمنتوف اكثر الشعراء الروس رومانسية وعنفا ، اهتماما متزايدا بالسرد الواقعي » (٢٤) ومن هنا بقيت اعماله الشعرية حية ومؤثرة في تاريخ الشعر الروسي حتى اليوم . وما تزال بعض قصائده (انلاك) و (بلادي) و (سحب في السماء) التي استوعب فيها في سطور قليلة العالم الذي جسده قصيدة شيلسي (اغنية للريح الغربية) ، تقرأ بشغف حتى اليوم .

مقب موت ليرمنتوف عام ١٨٤١ ساد الاعتماد لفترة بان عصر الشعر الذهبي قد انقضى الى غير رجعه . وان الشعر الذي بداه بوشكين وليرمنتوف ثم نماه جوجول (١٨٥٢ - ١٨٠٩) بحويوه وخصوية قد احتل مكانه . خاصة وان العقدين التاليين قد شهدا بواكير اعمال ديستوفسكي (١٨٢١ - ١٨٨١) وانضج اعمال جوتشاروف (١٨١٢ - ١٨٩١) وتورجيف (١٨١٨ - ١٨٨٢) والنساج النقدي الخصب لييلينسكي (١٨١١ - ١٨٤٨) وهرزون (١٨١٢ - ١٨٧٠) ثم طلع بعدهم ذلك الطفل ارفع ديمتري بيساريف (١٨٤٠ - ١٨٦٨) فجهز بقوة حجته على اي امل للشعر في الازدهار . . عندما هاجم الشعر يعنف وراي ان المال الذي ينفق على كتب الشعر يجب ان يستخدم في تشييد السكك الحديدية وان كتب بوشكين شيء يساعد الكسالى على قتل الوقت . واعتبر انحب الافلاطوني والثالية والاحلام الشاعرية نوعا من العصافه او شارة على الضعف . . ووجدت افكاره المبينة على ضرورة التقدم العلمي والتطور المادي والاجتماعي والاهتمام بالتعليم صدى واسع في نفوس الشباب ، فبنوا الشعر وبداءوا يعتمدون على التجربة باعتبارها السبيل الوحيد الى المعرفة العفة كما اكسد بيساريف . ووجد الشعر نفسه ضائعا في مواجهة هذه الموجبة الفكرية الكاسحة التي لا تقيم له وزنا كبيرا ، بعد ان كان الشاعر ملء السمع والبصر . وكان ابرز شعراء هذه الفترة ديلوماسيا عاش في ألمانيا وفرنسا اكثر مما عاش في روسيا وهو فيودور تيوتشيف (١٨٠٢ - ١٨٧٢) Fëdor Tyutchev ولم يكن الشعر عنده دورا ورسالة كما كان الحال عند بوشكين وليرمنتوف بل كان نوعا من الترف الفكري والفلسفي يتصرف اليه في لحظات فراغه . . وكان ذا نزعة انبادوقليسية ترى الحياه محاطة بالاحلام كما يحيط الماء الفمبر تتخطب في داخلها امواج العناصر الاربعة ، النار والماء والهواء والتراب ، فيثير تخطبها الفوضى في نظم الكون البادية ومزج هذه النزعة الانبادوقليسية بشيء من وحدة الوجود التي يقبول بها سبينوزا . . وبجانبه هنا الحس الفلسفي التقد كان سلافي النزعة ذا افكار ساسية قوية ، واحتل مكانا بارزا بفضل اشادة تورجيف وتولستوي بأشعاره . . فلم يكن تولستوي يسمع سطور تيوتشيف عن وحدة الكون دون ان تدمع عيناه . .

كل الاشياء بداخلي وانا في كل الاشياء

دعني اشارك في العدم ، ودعني انتشر في العالم النائم
فلا شيء يترك اثرا ، وما اسهل الا اكون .

(٢٥) ج ٢٠ . كوهن (تاريخ الادب الغربي) ص ٢٩٢ .

(٢٦) مارك سلونيم (تاريخ الادب الروسي) ص ١١٨ .

(٢٤) مارك سلونيم (تاريخ الادب الروسي) ص ٤٨ .

– كيف حالك يا جرتي ؟ ما زلت تبكين فيما يبدو
هل عانيت من بعض الأفكار المرودة ؟! احدث لسيد البيت شي؟
– وهل استطيع الا ان ابكي ، اني اتعزق كامرأة مفضة بالخطيئة
وقلبي يكاد ينظر ويتصدع . فقد مات .. مات كازيا ، وذا
مات حبيبي ، مات .. مات زوري التراب

هذا الحديث اليومي الدارج الذي لم يجرؤ شاعر قبل نيكرا سوف
ان يقدمه في الشعر هو ما عمد هو الى الافراط فيه . ولكنه مع ذلك
استطاع – كما يقول تشيكوفسكي – ان يبكي بطريقة اجدل واتسد
تأثيرا من اي شاعر روسي اخر ، كما ان سطوره البطيئة الحزينة
بنهايتها مقاطعها الشعرية الخاصة وحروفها المتحركة الطويلة ، تبدو
كلحن انفرادي من فرقة موسيقية . وتشعره الرنين الحقيقي للموسيقى
الشعبية ، وللمقاطع الشعبية التي تقني في اجتماعات القرية . ولبطء
اغاني العمل ، والاشعار القصصية التي ترددها الفتيات القرويات (٢٧)
ولذلك فقد استطاع نيكرا سوف عبر هذه القدرات الابداعية الجديدة
ان يكتب عدداً من القصائد الهامة في تاريخ الشعر الروسي بالصورة
التي اصبحت موهبا « قصيدته الملحمية التي لم تكتمل (حتى تعيش
سعيدا في روسيا) اكثر القصائد المفردة اهمية بين (اوجين اونيجين)
لبوشكين والقصيدة الثورية (الاثنى عشر) لالكسندر بلوك » (٢٨) وقد
استفاد الرمزيون كثيرا من مقدرته الابداعية ومن التأثير القوي لفقراته
الخطابية .

اما الكسي نولستوي – والذي يمت بقراءة بعيدة لنيولستوي
العظيم – فقد نحا منحى اخر . اذ كسون مع ابولون جريجوريف
وابولون ميكوف (١٨٢١ – ١٨٩٧) وعند اخر من الشعراء النبلاء
جماعة ادبية دافعت عن مبادئ (الفن الخالص) في وجه عواصف
التيارات الفكرية المصطرفة . وكتب جريجوريف بمقالته ضد اصحاب
النزعة الوصفية المستور الفكري لهذه الجماعة التي وفقت بين
مثالية شيلنج ورومانسيته وبين النزعة السلافية المحافظة التي
بدأت تأخذ الجانب المضاد لنعاة الغرب او السير وراء الفكر الاوروبي ..
وتجاوزت سلافية هذه الفترة جمود السلافية الكنسية القديمة وطمعت
ببعض دعاوي الشوفينية القومية وبعض فكريات الحركة الشعبية .
ولكن جماعة الفن الخالص المحافظة استبدلت مثالية شيلنج
بافكار الشعبين الاصلاحية او الثورية .. وكتب نولستوي في ظل
هذه النزعة المحافظة التي لم تحرره من السخرية من حكومة تركز
السلطة ثلاثيته الشعرية (وفاة ايفان الرهيب) و (القيصر فيدور)
و (القيصر يوريس) من الشعر المرسل ، الذي يقترب كثيرا من روح
ملحمة ابجور الشعبية ، والذي كان شيئا ريانا في هذا المجال ،
انحدرت منه فيما بعد تيارات الشعر المرسل الواهنة والجديدة معا ،
واستفادت منه حركة الشعر الروسي وان جنحت بعد ذلك بعيدا
عنه . لكن انتاج نولستوي لم يكن كله شعرا مرسلا .. فقد كتب
عددا كبيرا من القصائد الفنية والمقطوعات الشعبية . كما كتب
جريجوريف في ظل هذه الجماعة قصائده الفنائية الساحرة التي
تقني فيها بوسكو القديمة واغرم عبرها بجوفات انفجر وتجاربته
البنائية التي اثرت التجربة الشعرية والابداعية للقصيدة الروسية
برغم فراغها النسبي من المعنى كما يجمع على ذلك نقاده .

واذا كان نيكرا سوف شعبيا ذا نزعة ثورية ونولستوي محافظا
فان فيت كان عدويا ذا ولع شديد بالفلسفة والانسياق وراء الاحلام.
كتب معظم اشعاره ما بين ١٨٤٠ و ١٨٦٣ ثم اعتصم بالصمت لاكثر من
عشرين عاما . وكان « حرفيا من الطراز الاول واستاذا في القصائد
القصيرة التي تتغنى بالحُب وبالطبيعة . وربما كان اكثر الشعراء

الروس في القرن التاسع عشر نعا من حيث الموسيقى . وكان البنين
الابداعي المسيطر على شعره تطورا لطريقة التقني عند جوكوفسكي (٢٩)
ومع ذلك فلم تلق قصائده المدهشة عن الحب والطبيعة اي تقدير قبل
نهاية القرن ، حيث اهتم به الرمزيون واعتبروه اسانادا في الموسيقى
وجماليا صوفي النزعة وشاعرا من ارفع طراز . وقد تأثر هذا الشاعر
تأثرا كبيرا بشوبنهاور وترجم مؤلفاته الى اللغة الروسية .. كما انطوى
شعره على ايمان عميق بوحدة الوجود وعلى نزعة صوفية لا نجد
مثيلا الا عند الصوفي العربي الكبير محيي الدين بن عربي . وقد
هاججه التحرريون والاشتراكيون في الستينات .. واعتبروا شعره
ابلى دليل على الجمالية الفارغة من المعنى . ولم يفتنوا الى القوة
الروحانية التي تنبئ وراء هذين الروح الفاضل وتيسر الاحشاح
المبهم في اشعاره .. ولا الى الدور الكبير الذي تضطلع به الاحلام
في عالمه الشعري ، ولا الى كسوفه اشعرية ولسانه الرفيعة التي
تم عن بصيرة شفيفة . وغير ذلك من القدرات والانجازات التي نهل
منها الشعر الروسي بعد ذلك دونما كلل .. وفي قصيدته (زهرة
سبتمبر) نلحس بعض هذه الصفات برغم جناية الترجمة عليها ..

فتحت شفتيها الحمراءين نصف فتحة لتنهات الصباح الجليدية
فما اغرب ان تبسم وردة ،
في يوم رشيق الخطو من ايام سبتمبر .
اي مقامرة جسورة هي ، حتى تبسم بكبرياء جليل
كملكة يزدهي الربيع على شفتيها
قبل ان يرفرف العصفور الازرق ويعوم
بالقرب من الشجيرات التي افترقت اوراقها منذ زمن بعيد
انها زهر بنبات راسخ وتامل في
ان تنتزع من سرير البرودة هذا
وستكون الوردة الاخيرة التي تثبت نشوانة
بهندي الضيفة الفتيحة .

في هذه القصيدة القصيرة لا يمكن ان نكتفي بما يمنحه لنا
السطح الخارجي الهادي .. بل لا بد لنا من النفاذ الى جوهرها
الدخين عبر تفقد العلاقات وتمدها خلف غلالة البساطة البادية ..
وعبر الاحالات العديدة التي قد تشرها في النفس قصة هذه الوردة
الجسورة وسط رباح الجليدة .. وربما كانت وردة الشعر التي تهب
عليها رياح النثر من كل صوب ، وتطمح في كبرياتها النبيل ان
تعود مرة الى اخرى لتزين صدر الحياة .. وربما كانت عشرات
الاشياء الاخرى التي توحى بها هذه المرحلة الصاخبة في حياة روسيا
.. لكنها في جميع الحالات كانت مدخلا ملائما للحديث عن الموجه
الجديدة التي ارهصت بها اشعار ما بعد الرومانسية .

(٥) الاتجاه الرمزي .. واظلال العصر الجديد :

ها نحن بعد تلك الرحلة الضرورية الطويلة نبلغ مشارف العصر
الجديد .. حيث تخلت فكريات عصر التنوير ومدارسه الادبية عن
مكانها للأفكار والمدارس الادبية التي صاغت مسيرة الادب الروسي في
القرن العشرين .. وحيث بلغ الصدام بين المثقفين والسلطة ذروته
في سنوات الاعداد للشورة .. وحيث تخلت ارهاصات التنوير الجذري
في مجالات الفكر والادب والسياسة . فعلى الصعيد الفكري والسياسي
بدأت العواصف تهب من جديد على عرش ال رومانوف . وتعرض القيصر
للاغتيال عدة مرات حتى عصفت به مؤامرة ابراهيمية عام ١٨٨١ اغتاله
فيها طالب من حزب (الارادة الشعبية الجديدة) الذي نهض على انقاض
جماعة (الارض والحرية) وهي ابرز جماعات الثوريين في الستينات .
واخذت النزعة السلافية المحافظة التي عاودت الازدهار في الاربعينات

(٢٩) ديمتري ابولينسكي من مقدمته ل (كتاب بنجوين للشعر

الروسي) ص ٤٢ .

(٢٧) المرجع السابق ص ١١٨ .

(٢٨) ج.م. كوهن (تاريخ الادب الغربي) ص ٢٩٤ .

والخمينيات والسينيات تعاني من الذبول من جديد ، وتتلصص رقصه دعائها من الابداء والمفكرين والسياسيين . فعوضت السلطة السلافية النزعة انفضاض الكتاب من حولها بالجروح صوب السفوح الارهاب . فاحكم الرجعي الديكتاتوري الكبير بوبيلونوستريف قبضته الحديدية على روسيا طوال سنوات وسنوات ، ونجح في الخروج بالفاراب القيصري سليما من المجاعة التي اجتاحت روسيا مع بدايات العقد الاخير من القرن الماضي . وعلى الجانب الاخر تعددت الجماعات الثورية التي انفتحت على عقلانية الفكر الاوروبي في النصف الثاني من القرن الماضي . على فكر ماركس وانجلز وداروين وبرودون وشبنهور ونيشه وكتابات الاشتراكيين الخياليين من امثال سان سيمون وروبرت اوين ولوي بلان . واستلهمت خطى كومونة باريس التقدمية الاولى عام ١٨٤٨ التي نجحت في اسقاط عرش لوي فيليب برغم فشلها . . وشقيقتها المحطبة الثانية كومونة ١٨٧٠ - ١٨٧٢ التي اجهزت على عرش نابليون الثالث بعد هزيمة فرنسا في حرب السبعين (٢٠) .

وعلى الصعيد الادبي كان عمالقة الادب الروسي الذين رفعوا منارات الهداية لسبب يرف في فيود اللول والعسودية - تورجينيف واوستروفيسكي وسالتيكوف وديسنوفسكي وولسنوي وتشيكوف - قد قدموا اعظم اعمالهم الواقعية قبيل نهاية القرن . ولم يعد باستطاعه احد ان يضيف شيئا الى عالم البشر الزائدين عن الحاجة ، بينما تضج اعماقهم بطافات وانفصالات وامكانيات هائلة وحيية معا ، والذي صورته معظم اعمال هؤلاء الكتاب العظام . وبدأت رياح التغيير الذي اغترى الادب الفرنسي - اكثر الادب تأثيرا في الادب الروسي - بعد منتصف القرن عندما هز بودلير (١٨٢١ - ١٨٦٧) ضمير العصر بترجمة افاصيص ادجار آلان بو (١٨٠٩ - ١٨٤٩) غير العادية عام ١٨٥٤ ، ثم باصدار ديوانه القنبلة (ازهار الشر) عام ١٨٥٧ فمسحا بذلك الطريق امام اسلوب تيمبيري جديد اثرته وعمقته اضافات بول فيرلين (١٨٤٤ - ١٨٩٦) وستيفسن مالارميه (١٨٤٢ - ١٨٩٨) وارثر رامبو (١٨٥٤ - ١٨٩١) من بعده . وولدت خلال مغامراتهم اجنة الرمزية منخلية اطلال البرناسية والواقعية معا ، ثم خرج الشعر الحر من اهابها بعد قليل . بدأت هذه الرياح تهب على الادب في روسيا . . بل لقد راق اندلاعها في فرنسا بعض الارهاصات المشابهة في روسيا نفسها . والتي عرفنا على ملامحها الباركة منذ قليل . . لكن بداية الثورة التي انعطفت بالمسيرة التدريجية المتتابعة الحلقات للشعر الروسي لم تبدأ قبل العقد الاخير من نهاية القرن الماضي . وهي ثورة على درجة كبيرة من الاهمية لان اغلب تيارات الشعر الروسي المعاصر خرجت من اهاب هذه الثورة التي استمرت حيوية متجددة لاكثر من عقدين من الزمان . وهي ثورة كبيرة لانها انطوت في الواقع على اكثر من حركة تجديد واحدة ، اعربت كلها عن ضيقها بالوضع الذي آل اليه الشعر والشاعر الروسي في السبعينات والثمانينات ولكنها لم تتفق في تصورهما للمخرج من ازمته . بل تعددت اجتهاداتها بصورة اعادت للشعر الروسي عصره الذهبي من جديد . . واكسبته حيوية وخصوبة واضحين ، ولكنها في نفس الوقت وضعت على حافة التمزق والمساوية . فقد ضاق الجميع بتدهور وضع الشعر تزاء مد موجبة النثر الكاسحة ، وبتراجع دور الشاعر امام الزحف المقدس لنور الناثر السياسي الذي بدأ يحصل مكان الصدارة في المجتمع الروسي . ولكن الدروب تشعبت بهم حينما حاولوا البحث عن طريق للخروج من هذا المازق ، فاتجه البعض الى الرمزية والبعض الاخر الى المستقبلية .

وطرح الرمزيون اول سبيل للخلاص اذ ظهر البشائر الالوسي لمدرسهم مع بداية التسمينات . واستطاعت ان « تبث الحيوية في النعمر وكانت لها روابط بالادب في اوروبا الغربية اكثر مما كانت عليه ايام بوشكين . وكانت القوة المحفزة لها مزودة ببقايا السلاوية وبالحيوية الروحية لاجزاء من الشيوصوفية ولاجزاء اساسيه اخرى من صوفية الكنيسة الارثوذكسية » (٣١) . وبدأت رمزيتهم مقابلة للرمزية الفرنسية وملغية معها في آن . ولا غرو ، فقد « قدمت الدوافع الاصلية لهذه الحركة من فرنسا . اذ كان الرمزيون الاوائل مثل برياسوف سديدي الناثر في كل من نظريته الشعرية واسلوبهم الفني بيودلير وفيرلين ومالارميه . . لكن الحركة كانت لها جذورها المحلية في اشعار تيوتشيف التي سعت الى اكتشاف الحقيقة الناقية خلف عالم الاحاسيس . وفي التجربة الايقاعية لبيت التي استنبقت مطامعهم في بويق العلاقة بين الشعر والموسيقى . وفي الاشعار الصوفية لسولوفييف » (٣٢) ولازدواج المؤثرات هذا ، بدت الرمزية الروسية ملتقية مع الفرنسية ومختلفة معها في آن . . لتعني معها في ضيقها بالبرناسية التي مثلتها في روسيا مدرسة جريجوريف وميكوف ، وبالواقعية التي دفعت النثر الى اكتشاف الشعر في طريقه . . ولتتعي معها في سرورها - الا يكبر النعمر سخيا ولا يذائبا بل ان يكون احيائيا ، وان يكفي بالتلميح عن الاشياء وباستخراج صفاتها التي نجسم فكرة ما ، فليس للقارئ ان يقاد بيده الى موطن فكرة الشاعر الدفينة ، بل عليه ان يجد الفكرة التي يضمنها حقل القصيدة الضبابي ، وان تفوده علامة لا يدرك الى احد الامكنة ، حيث تختبئ او تتفتح فكرة هي غامضة لانها مركبة (٣٣) ثم تختلف عنها بعد ذلك . . اختلاف الجذور الروسية المرفعة في التصوف والرؤى الفلسفية والدينية ، عن الجذور الفرنسية البودليرية الطابع ، الطالعة من رحم الجنس والافيون والانخراط العفوي في ثورة كومونة باريس الاولى . والحقيقة انه لم تكن ثمة مدرسة رمزية واحدة في روسيا ، لان الشعراء المبدعين الذين انصوا تحت لواء هذا الاتجاه بينهم من التمايز والتباين ما يجعل من الصعب وضعهم في مدرسة واحدة ، وان كان من الممكن ان نسلتهم في نيارين رئيسيين . ينهض النيار الاول منهما على كشوف فيت الايقاعية وعلى تجربته في تعميق الاواصر التي تربط الشعر بالموسيقى . . وكان أبرز اعلام هذا النيار فاليري بريسوف (١٨٧٢ - ١٩٢٤) Valery Bryusov وانوكيتني اينيسكي (١٨٥٦ - ١٩٠٩) Annokenty Annensky وفنستظنين بالمونت (١٨٦٧ - ١٩٤٣) Konstantin Balmont وديكسيمليان فولاشين (١٨٧٧ - ١٩٣٢) Makcimilian Volashin وعدد آخر من الشعراء الاقل اهمية . وكان هذا التيار اقرب التيارين الى المدرسة الفرنسية ليس فقط لان الشعارين البارزين بريوسوف واينيسكي اللذين قاداه قد استلهما اعمالهما من الرمزيين الفرنسيين ، ولكن ايضا لانه كان تيارا ادبيا خالصا لا سياسة فيه ولا فلسفة ، ولان اعتماده على تجربة فيت الشعرية وجه اهتمامه صوب الصوتيات والاستعارات والاحالات وعناصر البنيان دون عناصر الرؤية . ومن هنا شفت تجربته الشعرية بطاقات يستحيل نقلها خارج اطار اللغة الاصلية ، وبصفاء صوتي ضرب ابلغ الامثلة على « اوفونيه » اللغة الروسية - كما يقول اورلوف - وعلى

(٣١) ج . م . كوهن (تاريخ الادب الغربي) ص ٢٠٩ .

(٣٢) ديمتري ابولونسكي من مقدمته لكتساب (بنجوين للشعر

(الروسي) ص ٤٢ .

(٣٣) فيليب فان تيجيم (المذاهب الادبية الكبرى في فرنسا) ، ترجمة فريد انطونيوس ، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٢٨٠ .

جمال تناغماتها وتساوقاتها العلية . وكان هذا التيار اميل الى النزعة السلافية اذا ما اردنا تحديد موقفه من الاتجاهين الكبيرين اللذين سيطرا على هذه المرحلة . ولكنه لم يفهم السلافية كما فهمها انصار جماعة (الفن الخالص) ، لان سلافيته كانت اقرب الى التصور القومي منها الى التصور الديني . وقد انعكس هذا في ولعهم بالطبيعة وفي موقفهم من الفن . اذ اتجه هذا التيار الى نوع من التأثيرية التي تتيح للفنان ان يطلق لهواسه وخيالاته وانطباعاته البكر العنان ، دوي اي قيد او شرط ، وان يبادر الى اقتناص اصداء الطبيعة وانكشافاته على ذاته . وادى شفهم بالطبيعة واخترامهم لانطباعات النفس الباكرة عن الاشياء الى نوع من الاغراق في العسية وان سيطر عليه بعضهم بالصنعة الحاذقة وتركله البعض الاخر حرية التمادي في الجموح والغفوية .

وقد حاول انيسكي الذي قدم ترجمة شعرية جميلة لاعمال يوريديس الى اللغة الروسية ، حيث كان من ابرز علماء اليونانيات في عصره والذي اغرم في قصائده بتصوير المعاناة والموت والجمال البدد في عالم البشر الزائدين عن الحاجة .. حاول ان يجري على القصيد الشعرية بعض التجارب الموسيقية وان يخضعها لعنفس التوججات الصوتية للالات الموسيقية .. وقد ترك هذا الفرام بصماته على عناوين بعض قصائده وعلى مبنى بعضها الاخر الذي اجضعه لبنيان السوناتا الموسيقية مرة ، والذي جعله صدى لتصاعد الايقاع نحو لرى صوتية عالية (كريشينو) او لهبوطه التدريجي حتى ينغم في الصمت (ديكريشينو) اخرى .. ولم يفصل انيسكي الايقاع عن المعنى في هذه التجارب الموسيقية بل جعله وجها اساسيا من وجوه المعنى الحسي والرمزي داخل القصيدة وفعالية مشاركة في اثراته بالذلات والايحاءات المتعددة .. لذلك فان قصيدته (ديكريشينو) تظل محتفظة بعد الترجمة بالكثير ، برغم الاهمية الفائقة للجرس والايقاع فيها .. والتي جعلته يهبها هذا العنوان الصوتي الدال ..

من العراك الوحشي بين السحاب والسحاب تولد العاصفة فتصطبغ تحتها الامواج المتلاطمة في البحر الفارغ وتندفع مليئة بالصف والفضب مهددة الشاطيء وعند انحصاراتها تخلف وراها زمجرة وهديرا كذلك المنافع من فوهة مئات الفجوات ثم تنهار في الوهاد ، وكأنها من حديد ، فتتخطب مياها الزبدة ثم يأخذ الثور الجبار طريقه ، ليسوط بذيله السحب ولكن .. رويدا رويدا .. تنخفض الامواج المتلاطمة ويحسر منها وتختفي غوارب امواجها الطيعة تحت القوارب الطافية والان .. فانها بالكاد تنوش الطمي وتداعيه .. فقد اتفنا غضبها والرمل طري والشاطيء الشمس شديد الهدوء وتطوي الموجة ثم ترقد متراخية في هدوء .

ان اي تحليل للالفاظ التي صيغت منها القصيدة بعد الترجمة ، وبرغم اهمية الجرس والايقاع المقفودين ، سيضع ايدينا على ذلك الديكريشينو الذي يهبط فيه الصوت ويخفت حتى يموت .. ففي البداية كان العراك الوحشي والعاصلة والاصطحاب والتلاطم والاندفاع والفضب والتهديد .. وفي الوسط بدأ يظهر الانهيار والتخبط والزبد والانخفاض والانحصار .. وعند النهاية بدأت الكلمات تلبن وترق فظهر الانحاء وبدأ الشاعر يهتم باعراف الامواج وغواربها . اكثر اجزاء الموجة هشاشة ، ثم جاءت الطاعة والقوارب الطافية وبدأت الطلاقة المشحونة في البداية بالتهديد بين الموجة والشاطيء تاخذ شكلا آخر .. انها تنوش الآن الطمي المترسب عند بداية التصاق الشاطيء بالماء وتداعيه ثم تنطوي وترقد متراخية في هدوء .. اما على صعيد المعنى فان هذه القصيدة القصيرة التي تبدو لاول وهلة وكأنها احدى القصائد الوصفية للطبيعة ما تلبت اذ ما ترشنا امام

حركة المعنى فيها - لان المعنى هنا دينامي متحرك وليس ثابتا - ان تبوح لنا بالكثير . وخاصة اذا ما وضعنا في اعتبارنا ذلك التشكيك ، الذي يستهل به الشاعر قصيدته ، في حفيقة او بالاحرى واقعية المشهد برمته .. لان كل هذا يحدث في بحر فارغ ، او بمعنى آخر يحدث في بحر مجازي لا واقعي . واذا ما عرفنا انها كتبت ايان حركة القمع الوحشية التي اعقبت فشل ثورة ١٩٠٥ .. لتضع فاعلية عنفها الوحشي بين قوسين كبيرين من الشك . ولتلا النفوس بأمل دائم في الحياة التي لن تلبت ان ترق وتصفو برغم كل العواصف .

اما فاليري بروسوف الذي كان يعتبر الكلمات عائله الانير ، ويعتبرها ماسا وذهبا وصلباويرى انها تطير وتحرق وتلمع وتتحرك .. فقد كان اشد ولعا بالكلمات واقل ميلا الى الاهتمام باي شيء خارج ذاته في الفترة التي تزعم فيها الحركة الرمزية في موسكو .. لانه ما لبث بعد الثورة ان اتجه الى تأييدها وترك الرمزية وراء ظهره كما فعل بلوك . وابان رمزيته كان شعره بالغ الصقل والهدوء ، شديد الاهتمام بالصور الخيالية والاستعارية .. وظل طوال المرحلة الرمزية في حياته « خادما مخلصا لالهة الشعر ، والى جانب كونه عالما وفقهيا لغويا مجيدا ، ودارسا ممتازا للكتاب الروس والفرنسيين ، كان استاذنا للشكل ، ضبط التوافق النغمي بواسطة عالم الجبر ، وكان يفتقر الى التجربة الصوفية ، واستخدم الرموز كذلات جميلة على نظام لغوي مرتب . ولم يكن في حقيقة الامر يبالي الا بالقسم الجمالية » (٢٤) الخالصة . ومن ثم فقد حاول ان يوسع من افق المساحة الايقاعية التي يتحرك فيها الشاعر الروسي فاجرى بعض التجارب التي دخلت بفضلها بعض الاوزان الجديدة الى الشعر الروسي . وحاول احياء الروح الكلاسيكي من جديد مستفيدا في ذلك من ذبول الرومانسية الروسية ومن الاعمال الشعرية والدرامية التي ابدعتها الكلاسيكية الفرنسية الجديدة . وانعكس اهتمامه بالبنيان الشعري بشكل واضح على قصائده التي اهتمت بقضايا الشعر الجمالية ، ففى في قصيدته (سوناتا الشكل) للاكمال والتساوق في البنيان بينما اسفرت لقصيدته (الى الشاعر) عن بعض رؤاه وتصوراته الادبية .. او بالاحرى عن بعض رؤى هذا التيار الرمزي لطبيعة الشعر ودور الشاعر .. لذلك اترنا ان نترجم هذه القصيدة القصيرة هنا لانها تنوب عن الكثير من التحليلات والاحادث النظرية عن هذا التيار ..

لا بد ان تكون فخورا كراية ، حانا كسيف ولا بد ان تتوهج خذاك ، كدانتى ، باللهب الضفي كن هادئا وباردا وساخرا ازاء كل الاشياء وادر نظرتك متفحفا كل شيء حولك . واطلق لهارتك العنان ، فكل شيء في هذه الحياة لس الا وسيلة لابداع مفعم بعذوبة الشعر وحيويته وابحث منذ طفولتك البهجة عن تركيب الكلمات وعندما يفرك الفضب القاسى ، فلتسم بالامك العالية وفي احلام الصباح وفي كوابيس المساء ، حاول ان تدرك رسالة القدر المهمومة وتذكر ، ففى زمن سحق ، جعل تاج الشاعر الدليل مرة من الشوك

وخوفا من ان يجعل له هو الاخر تاج من الشوك ، انضم بروسوف الى معسكر الثورة بعد عام ١٩١٧ كما فعل بلوك واندرية بلى من الرمزيين . واستطاع معهم ان « يسلم راية الشعر مباشرة الى الجيل الجديد من الشعراء السوفيتيين . وهذا ليس تعبيراً

استماريا ولكنها الحقيقة . لان محاضرات بلوك واندرية يبلي عن الشعر قد استفاد منها شعراء المستقبل ونابروه . ولان شعراء العشرينات الشباب قد درسوا في (المعهد الادبي) الذي نظمته بروسوف (٢٥) وتعلموا من تجربته بعد الثورة التي غنى فيها لقيم وافكار العصر الجديد دون ان يتخلى عن ولده الدائم بالانصاف للكلمات واللعب بها كقيمة جمالية وصوتية مجردة . ذلك لان .. الكلمات المتنوعة هي العالم الذي اعرفه
فالكلمات مثل الماس او الذهب او الصلب
الكلمات التي تتألق وتتقد وتوهج
ولكن كلمة (الكدح) هي اكثر الكلمات قداسة .
انه لا ينسى وهو يعني للقيمة التي اعلنت الثورة شأنها ان هذه القيمة على الصعيد الشعري تنبى وتجدد في كلمة .. ربما كانت اكثر الكلمات قداسة ولكنها كلمة قبل اي شيء .. كلمة من عالم الكلمات الذي عرفه الشاعر واتقن الانصاف له وتفانى في خدمته حتى آخر رمق .

بعد بروسوف وانيسكي لا يبقى من شعراء هذا التيار البارزين سوى بالمونت الذي كانوا بلقونه بأورفيوس الحركة الجديدة . والذي تظهر منه بدايات الطابع المساوي الذي رافق ازدهار الشعر اسان الحركة الرنزية . فبعد ان كان بالمونت اشهر الشعراء الروس طوال العقد الاول من هذا القرن ، بصورة لم يستطع معها اي شاعر شاب ان يتجو من تقليده في بداية حياته ، وبعد ان تغنى بروسيا وعشقها الى حد الهوس ، ها هو يموت وحيدا فقيرا مهملًا ومنسيا وجائعا في باريس المقررة الكثبية الراحة تحت كلال النازي الثقيلة عام ١٩٤٢ ، بعد ان عانى عذابات القربة والوحشة والبعد عن روسيا الحبيبة منذ هاجر منها عام ١٩١٨ . وبعد ان تركت هذه الهجرة الاضطرابية الدامية قروحها على اشعاره الاخيرة المليئة بالحزن والمعاناة والتشوش ، والتي اكسبتها طبيعته التلقائية وموهبته المتفجرة ومزاجه المتقلب وحساسيته الفائقة درجة من السحر الذي يختلط بالعنف والفضوض . لكن اشعاره التي كتبها في روسيا والتي اثر بها في المدرسة الرمزية كانت شيئا آخر .. كانت ذات « نغمة تطبيقية عالية ، واوزان متناوبة وقواف رنانة وتسيمات ساحرة وقدرة ابتكارية مذهلة على تنعيم الالفاظ وتوقيعها . وقد خدم فيها كما قال هو نفسه آلهة السكون الهادئ والهة الحركة بنفس القدر . وانتقل فيها من الحركة الى التاكيد العاصف للحب ومن الانفعال السى الفنائية . ومن تقليد الفن الشعبي الى ترجمات بو وبودلير وكالدرون وشيللي . وكان سحر شعره كسحر سحابة جميلة ، يختفي بنفس السرعة . وكان دوره في احياء الشعر الروسي وخصابه عظيما » (٣٦) .

فلسفيه خصيبة لها اصداؤها الفوية هي الروح الروسية .. واثلتها ان رمزته تجاوزت نطاق الاهتمام بالشكل الى جوهر الرؤية نفسها ومن ثم فقد كفلت لنفسها الحياة لوقت طويل .. ورابعها ان هذا التيار كان اعلم وعيا بازمة الشعر الروسي من التيار الاخر .. فلم تكن الازمة في صورته هي فقدان الشعر لدوره ازاء موجة النثر الكاسحة ، ولم يحلها بالاهتمام بان يكون الشعر اكثر غذوية واجمل ايقاعا كما فعل التيار الاخر .. بل كانت الازمة في صورته هي تغير حساسية العصر وهي البحث عن دور وعن تصور لوظيفة الشعر ودور الشاعر في مجتمعه احتل فيه الفعل المكان الاول ونحو الشعر جانبا .. وخاصها انه اذا كان « شعراء التيار الاول من الرمزيين تعبيريين ورمزيين ذوي طابع بودليري او هيرليني ، وشهويين او شكيين وضالين ، ولكنهم استطلخوا ان يبسطوا اجنحة الشعر الروسي ومصادرة على طريقة دالينزو ، فان شعراء التيار الثاني كانوا روسيين حتى النخاع » (٣٧) وكانت هذه الروسية الاصلية عاملا في قوة تأثير هذا التيار وحيويته . اما العامل السادس فهو ان اثنين من شعراء هذا التيار الكبار - وهما بلوك واندرية يبلي - استطاعا بانضمامهما الى الثورة وبموهبتهما الادبية الكبيرة ان يؤثرا في جيل كامل من الشعراء ثم استمر تأثيرهما حتى احدث احيال الشعر الروسي .. لكل هذه الاسباب مجتمعة كانت اهمية هذا التيار الرمزي الاصيل ، وكان تأثيره الكبير في الشعر الروسي .

وينهض هذا التيار الرمزي على صوفية الفيلسوف الروسي وعلى انتاجه الشعري معا . « وتنطوي اعماله الفاسفية في خطوطها الرئيسية على نوع من الوحدة او التوحيد بين كل الكنائس ، وعلى نزعة صوفية توفق بين اثنين من العلم » (٣٨) وعلمى فكرة مثالية تعود الى افلاخون واغلوطين . وتناثر بالاداب المسيحية والافكار البوذية معا . وتنهض فلسفته على فكرة وحدة الوجود التي كانت بطبيعتها غائية او نهائية ومطلقة باعتبارها محورا لتفكيره . وقد عرفها سولوفيوف بانها العالم السماوي الذي يتجسد في اسم الله . ولا يمكن ادراك الحقيقة او وحدة الوجود عنده ادراكا عقليا او تجريبيا . ولكن يمكن ادراكها فقط عن طريق المعرفة الكلية التي تمر عبر المعرفة الصوفية . ومن خلال الايمان بالوجود اللانهاي للمدركات الحسية . والتأملات او التصورات العقلية التي توصلنا الى الحقيقة الجوهرية للمدرك الحسي هو نوع من الابداع عنده تتحقق فيه الفكرة من خلال البصيرة والتجربة . ويرى سولوفيوف ان المعرفة الكلية هي الحصنة النهائية للبصيرة الصوفية والمعرفة العقلية والتجريبية العلمية . ومن خلال ذلك استطاع ان يحقق نوعا من الوحدة بين اللاهوت والفلسفة والعلم فيما سماه بالثيوصوفية الحرة ، التي تجسد على النطاق الاجتماعي في تلك الوحدة الروحية الاختيارية بين البشر ، والتي سماها بالثيوفراطية الحرة . وعلى الصعيد الكنسي فان (مملكة الله) ستتحقق على الارض حينما يمتد جميع البشر تلك الثيوفراطية الحرة ، التي سيكون من نتيجتها توحيد كل الكنائس .. وكان هذا في صورته هو الدور الملقى على عاتق الشعب الروسي . ففي فلسفته كان هناك مكان للفرد ومكان آخر للجماعة .. فالفرد يستطيع بقوة بصيرته ان يحسن مشروع العالم الاول وان يترك الروح الكلية والازلية خلف مظاهر التجربة الحسية .. بينما يناط بالجماعة العمل على تحقيق مملكة الله فوق سطح الارض » (٣٩) .

(٦) الرمزية الصوفية .. مكوّناتها الفلسفية وتأثيراتها :

اذا كان التيار الرمزي الاول قد انتهى قبل اندلاع الثورة بمسدة سنوات ، اذ كان احد قائده قد مات قبل اندلاعها بتسع سنوات وفقد المع شعرائها بريقه ثم هاجر من روسيا نهائيا عام الثورة - ١٩١٨ - بينما انحاز قائدها الاخر الى صف الثورة في العام نفسه .. اذا كان هذا حال التيار الرمزي الاول فان تأثير التيار الرمزي الثاني - الذي كان مزامنا له ولم يكن تاليا او سابقا - ما زال مستمرا في واقع الشعر الروسي حتى اليوم . وذلك لاسباب عديدة .. اولها ان هذا التيار قد استقطب عددا كبيرا من الشعراء ذوي المواهب الكبيرة . وثانيها انه قد ارتكز على ارضيه

(٣٥) الكسنندر مكاروف (الشعر الروسي بين ١٩١٧ و ١٩٦٧)
عدد خاص من مجلة (الادب السوفيتي) يونيو ١٩٦٧ .
Alexandr Makarov , (Russian Poetry 1917 - 1967)
Soviet Literature monthly , June 1967 .

(٣٦) مارك سلونيم (تاريخ الادب الروسي) ص ١٧٢ .

وسترى عيني الداخلية نفس صورك ،
يا سيدة ملكات الجان ، يا ملكة اشجار الصنوبر والصخور .
انت ظاهرة كالتلج المساطف فوق الجبال ،
انت مثقلة بالافكار والرؤى والظنون كليلة شنائية ،
انت متوهجة كالضياء البازغ من الشمال ،
ابنتا الابنة المتألفة للهولي المظلمة .

ففيها نلمس ذلك العناق الحميم بين ما هو ارضي وما هو سماوي ، وبين ما هو واقعي وما هو مثالي ، وقد امتزج هذا العناق بحس تراثي طويل نفضى عبره الشعر الروسي بالطبيعة وهام بنحولاتها الخفية والبادية . وفيها نلمس دور البصيرة الكبير في ادراك ما هو « جوهر وحقيقة » خلف المشهد العرضي والفاصل الواقعية او بالاحرى خلف الرؤية الصوفية للتفاصيل الطبيعية .. لان ما يرى هنا ليس البحيرة التي حول الشتاء ماءها الى صمت ابيض شفيف ، ولكن ما خلف هذا الصمت الابيض الشفيف من رؤى ورموز واسرار .

بعد سولوفيوف يعي دور بوريس بيجاييف Poris Bugaiv الذي كان يكتب تحت الاسم المستعار انثري بيلي (1881 - 1924) والذي يدعونه بحق جيمس جويس الادب الروسي . فقد كان بالنسبة لروسيا ما كانه جويس وبروست بالنسبة للغرب في العشرينات ، لانه قام بثورة اسلوبية اهتمت بان تصفي الشعر على النشر . وان تغامر بالبحث عن لغة جديدة وعن تراكيب تمجيرة طازجة واصيلة ، ولانه استطاع ان يقوم بدور فعال في ترجمة رؤى سولوفيوف الفلسفية الى لغة واسلوب ادبي . ولان نشاطه الادبي كان ذا دور حيوي في رسيخ الرمزية الصوفية ووسعي الامتداد بتأثيرها حتى مشارف الثلاثينات . فقد تنوع نشاطه ووزعت اهتماماته بين الشعر والرواية الخيالية والدراسة الادبية والفكرية والفلسفة في بعض الاحيان . وبلغ هذا النشاط ذروته في مجال الشعر بين عام 1901 و 1912 حيث ترك روسيا الى سوسرا زمكث بها حتى قيام الثورة . وقد تأثر خلال هذه السنوات الخمس بآراء رودلف شتينر (٤١) وكان يبلي كثير التحول والتبدل وما عاد الى روسيا تقبل الثورة بنوع من الاحاسيس والرؤى الفوضوية . الاحاسيس والرؤى الفوضوية . وحاضر عن الشعر للجيل الجديد وظل مخلصا للرمزية مشكلا القطب الكبير لها بعد هجرة اغلب كتابها الى الخارج عام 1918 وبعد موت بلوك ثم بربوسوف .. فوقف وحيدا في مواجهة القطب الكبير الاخر للحركة المضادة - المستقبلية - فلاديمير ماركوفسكي .. ولكنه لم يستطيع الصمود ازاءه .. لان يبلي فقد تأثيره الكبير رسخر القوى منذ خروجه من روسيا عام 1912 .. ولانه - كما نقول باسترنك - كان ساحرا للغاية ولكنه كان في نفس الوقت محدودا الى اقصى حد . وكان اشبه بموسيقى الحجر لا تستطيع الخائها الشجبة ان تؤثر في نطاق اوسع من هذا المجال المحدود اوسقى الحجر « واو عانى حقيقة لتمكن من ان ينجز عملا عظيما كانت قدراته تؤهله لانجازه . لكنه لم يرتبط ابدا

(٤١) رودلف شتينر (1861 - 1925) فيلسوف ثيوصوفي اسس عام 1912 الجمعية الاشروبو صوفية التي تستهدف عن طريق نوع من تعليم الاسرار الوصول الى رؤية روحية تدرك العوالم العليا ادراكا مباشرا يماثل ادراكنا للاشياء الواقعية عن طريق الحواس . فالاشياء المادية في نظر الاشروبو صوفية ليست الا تكوينات او بناءات عقلية وروحية مكثفة والانسان في رايها جسد وروح وعقل . ومن اهم اعمال شتينر (فلسفة الحرية) 1894 و (نظرة جوته الكونية) 1897 و (الثيوصوفية) 1904 و (موجز علم الاسرار) 1910 و (لفسر الانسان) 1916 و (لفسر الروح) 1917 و (طريق حياتي) 1925 .

بهذا التصور الفلسفي اكسب التيار الرمزي الثاني اتجاهه الادبي بعدا فلسفيا امتزج بالبعد القومي والتقى مع صيوات الروح الروسية في كثير من نواحيه . التقى مع حينها الى تحقيق النوازن بين العقلانية المتنامية والفكر الديني المتدهور والذي وجد اكمل تعبير عنه في تخلص سولوفيوف لتدين المسيحي من رجعية الكنيسة السلافية وتخلفها ، وتخلص الفكر الاوروبي من جموح افكار النصف الاخير من القرن الماضي صوب رفض الدين نهائيا . والتقى مع توفها الى ان يكون لروسيا فكرها الميتافيزيقي الخاص وتصورها المستقل لنور الانسان في راب الصدوع بين عاني المثل والوفائع . والتقى مع تشوفها لان يكون لحركتها الادبية هويتها الخاصة التي لا تكون معها صدى باهتا للحركات الادبية الغربية .. والتقى مع نزوع الجيل المثقف الى الارتشاف مع نتائج ابداعات العقل والوجدان الغربيين . اذ كان هذا التيار الرمزي - على صعيد موقفه من قطبي السلافية والتغريب - اقرب الى جانب التغريب ولكن بطريقته الخاصة والتميزة .

ولم يؤثر سولوفيوف في الحركة الرمزية بفلسفته فحسب بل اثر فيها ايضا باشعاره التي امتلأت بالعشق الروحي والتضمينات والاحالات الغريبة والتي كانت اكثر القوائد اغرافا في الرمزية والفهوض في التسعينات . واشدها خروجا على قواعد الاحالة التي تعارف عليها الرمزيون انفسهم . وقد حاول ان يحقق عبر هذه الاشعار بعض رواده الفلسفية وتصويراته عن كون الانسان همزة الوصل العبقرية بين الطبيعة والله . وعن اقتران البشرية بالالهية وهي فكرة تقرب كثيرا من فكرة الحلول عند الصوفي العربي الكبيسر الحسين بن منصور الحلج (857 - 922) الذي كان يرى ان الهدف الاعلى للحياة الانسانية في صيواتها اللامتناهية هو الوصول الى الله والاتحاد به اتحادا كليا ، والذي قال في (الطواسين) دع الخليفة لتكون انت هو ، وهو انتم حين الحقيقة .. كما عبر في شعره كثيرا عن هذا الفكر الطولي ..

ادنيته منك حتى ، ظننت انك اني

وغبت في الوجد حتى ، افنيته بك عني .

او مازجت روحك روحي في دنوي وبعادي

فانا انت كما انك ، اني ومرادي

او روحه وروحي روحه . ان يشأ شئت ، وان شئت شأ (٤٢) وكما عبر الحلج عن فكره الصوفي هذا في اشعاره العديدة ، جعل سولوفيوف شعره مرآة لفلسفته .. وعبر فيه عن الكثير من الرؤى والصيوات التي كانت بمثابة نوافذ تعينه المدى ، والتي اسسرت عبرها بصيرته السفيفه حجب المسفيل حيث ابصر الوجه الاسوي لروسيا يحتاج اوروبا في غزوات جماعية وحيث حس انتصار النور في النهاية . وحيث رأى ظهور الشر مرة اخرى في النزعة المفوية .. وحيث تناول عددا من القضايا والموضوعات التاريخية ولكنه مررها عبر مرشح رؤاه الصوفية واشراقته الدينية .. وتحمل قصيدته التالية (شناء عند بحيرة سبما) الكثير من ملامحه الشعرية

احطت نفسك من الرأس حتى القدم بمهظف من الفراء السهيك ،

رقدت ساكنة ، ثم رحت في سبات عميق ،

لا وجود لانفاس الموت في هذا الهواء المضيء ،

ولا في هذا الصمت الابيض الشفيف .

لن اوصل البحث عنك ،

في الرسوخ العميق الهادي القيم ،

(٤٢) لمزيد من التفاصيل راجع ماسينيون (شخصيات قلقة في الاسلام) ترجمة د. عبد الرحمن بنوي ، دار النهضة المصرية ، القاهرة .

تسكع فوق صف من الروابي النائثة ،
وتخترق روحي الهاربة من الليل ،
وحيث تمضي طرق الموت والأمراض المهلكة وتلاشى ،
أوه روسيا .. يا روسيائي الحبيبة !

باندري بيلي وسولوفيوف تكتمل الأبعاد الأساسية لتيار الرمزية الصوفية بأبعادها الفلسفية والقومية والجمالية ، وبتصورها للعملية الإبداعية الذي يمزج فيه الإلهام الرومانسي بالحس الصوفي والذي يجعل « الشاعر الرمزي منذ نشأته البكرة عرافاً يمتلك أسرار المعرفة التي تكمن خلفها أسرار الفعل » (٤٤) ، بشر نوع من الاستعلاء أو التميز على العالم المحيط به . ومن ثم ينقذه هذا التفوق من الوضع الأسيف الذي يردى فيه حال الشعر في العقدين السابع والثامن من القرن الماضي .. ويهتجه تبريراً معقولا إزاء عالم النشر المستشري والفعل الثوري الذي يحظى بأكثر تقدير . « ووفقاً لهذه النظرة الرمزية تأسس إحساس بالوحدة ، روعي مساوي بالعزلة عن الناس الذين أصبحوا بالنسبة للشاعر (حشداً) و (غفواً) و (جهمسه) - وإحساس بالاشتمزاز من الابتغال والصوفية التي تحيط بهم ، وشوق إلى حقيقة مقابلة ... حقيقة جوهرية أصيلة . والشاعر الذي كان يرى العالم المحيط به على هذه الصورة ، كان يحس بأن شعره نوع من النبوة . ورأى نفسه عرافاً أو كاهناً يتلقى الأسرار العظمى .. أسرار المستقبل . وفي المستوى الأعلى من هذا التصور وجد الشاعر أن عزله ومعاناته وتوحده هي تضحيتته من أجل المستقبل الذي لا تتكشف حجه إلا لعدد قليل من البشر » (٤٥) وقد حاول أغلب الشعراء الرمزيين الذين اندرجوا تحت هذا التيار أن يحققوا ذلك كل حسب تصوره ووفق منهجه في التعبير وإمكانياته .

وإذا تركنا الكسندر بلوك جانباً ، لأننا سنتناولها بشيء من التفصيل بعد قليل ، فإننا سنجد أن أبرز شعراء هذا التيار الرمزي هم فيودور تيترنيكوف Fëdor Teternikov الذي كان يكتب تحت الاسم المستعار فيودور سولوجوب (١٨٦٣ - ١٩٢٧) Fëdor Sologub وفياتشيسلاف أفانوف (١٨٦٦ - ١٩٤٩) Vyacheslav Ivanov وزينيدا جيببوس (١٨٦٩ - ١٩٤٥) Zinaida Guppius وإيفان بونين (١٨٧٠ - ١٩٥٢) Ivan Bunin وقد هاجروا جميعاً عقب الثورة باستثناء سولوجوب . وإذا كان بونين الذي هاجر إلى روسيا عام ١٩١٨ قد حصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٢٣ .. فإنه لم يكن أهم هؤلاء الشعراء الأربعة خلال الفترة التي اندرج فيها تحت راية هذا التيار الرمزي في أواخر القرن الماضي وفي العقدين الأولين من هذا القرن . فسرعان ما تخلص بونين بعد هجرته من آثار الرمزية وانطوى تحت نفوذ أسلوب البرناسيين وكان شعره وصفيًا أكثر منه غنائيًا . ولم يحظ بالشهرة والتقدير بسبب شعره وإنما بسبب أعماله الشعرية . أما فيودور سولوجوب فقد كان أهم هؤلاء الشعراء الأربعة وأعظمهم أثراً . إذ امتزجت ليوصوفيته بشيء من السحر والسياسة ، وانطبعت بميسم حزنين ومشائم بيتوى من يقين غريب بأن الشيطان هو الذي يحكم الجنس البشري وأن السبيل الوحيد للهروب من هذا الواقع اليومي الكئيب هو الإفراق من

بالحياة الحقيقية .. وربما كان هذا هو مصير الكتاب الذين يموتون في وقت مبكر مثل بيلي ، ومصير سحرهم التابع من جودة أشكالهم . فإنا لم أفهم مطلقاً تلك الإحلام الخاصة باللغة الجديدة ، أو بالصيغة الأصلية المتكاملة من التعبير . وبسبب من هذه الإحلام العصية فإن عدداً كبيراً من أعمال المترجمين التي وضعت هذه التجريبية الأسلوبية نصب عينها ، قد كفت عن الوجود » (٤٦) وإذا كان باسترنالك لم يفهم تلك الإحلام الخاصة باللغة الجديدة وبالصيغ الأصلية المتكاملة من التعبير فإن جيلاً بأكمله قد سحر بها ، وفتنته مؤلفات بيلي الشعرية التي كانت « تماثل المؤلفات الموسيقية في بنائها . فلم يكن صرفة للكلمات ونغماته وتبعااته والإبطاء والإسراع بالإيقاع والتأثرات السماعية ، مجرد حيل فنية ، وإنما هي تجارب شعرية مقصودة تقوم على دراسة واسعة عميقة . كما أن تحليله القياسي لمؤلفات الشعراء الروس ، وإبحاثه عن المشاكل الجمالية المختلفة ، قيمة أدبية واضحة . والآن من ذلك أنه حاول إيجاد علاقة بين الرمزيين والتقاليد الأدبية للقرن التاسع عشر ، مدعيًا أن الرمزيين هم الورثة الحقيقيون لليرمنتوف وبيكراسوف وتيوتشيف وفيت في الشعر . وجوجل وديستوفسكي وتشيكوف في النثر » (٤٧) وبذلك استطاع أن يمنح هذا التيار الرمزي بعده القومي والجمالي بعدما أعطاه سولوفيوف بعده الفلسفي . ولم يؤثر في هذا التيار شعره فحسب ولكنه أثر فيه أيضاً بنثره المربك المثير وبرواياته العديدة - (الإمامة الفضية) و (بطرسبورج) و (الأفضة) و (موسكو) و (كوتيك لينفايف) - ذات البناء الفني المدهش الذي مزج عناصره الحقيقي بالرمزي والفكري ، والخيالي بالتفاصيل الواقعية . وبلغته التي تتميز - كما يقول سلونيم - بخصوصية تركيبها ومفرداتها التي تتسم كثيراً بالثخوذ والتخدي ، وإن كانت أحياناً متضمنة وغامضة ومثيرة للضيق . وبرؤاه التي أرهست بتهم عالمي حكومة تركيز السلطة والجماعات الثورية معا ، وبتداعي تلك الثقافة الوهمية والعاصمة (بطرسبورج) الشبحية التي تتكون من الماء والجرائت والتي توشك أن تختفي في غياهب الظلام والعدم ، والتي تثبت في نفس الموهت للمستقبل بزوج مملكة الزوج التي تلمس فيها اصداً عديدة من مملكة الله عند سولوفيوف .. وقبل أن نهي هذه العجالة عن أندري بيلي لا بد لنا من نموذج قصير من شعره ..

كفى ، لا تنتظروا أو تأملوا ،

تفرقوا يا قومي التمساء !

فإن ميراث سنوات متعاقبة من العذاب ،

قد تبخر وتبدد في الفضاء !

أيه .. يا أرض بلادي ، بعد سنوات من الفقر والمجاعة ،

دعيني أرح قلبك فوق أرضك الندية ، وأبكي المدى الخالي .

فبعيدا عن هنا ، حيث السهول المليئة بالتلال الجبابة ،

وأكام البلوط الأخضر تميل وتهض صوب قطمان السحب الكثيفة ،

وحيث يتجول الربيع عبر السهول المفتوحة ،

طالما مثل أكمة ذات أذرع ذابغة ،

تطلق أغصانها اليابسة صفيراً حاداً في الريح

وحيث العيون الصفراء القاسية لعناتنا الجنونة

(٤٤) الكسندر بلوك (الوضع الراهن للرمزية الروسية)
Alexander Blak , (On the Present State of Russian
Symbolism) , from Blok Prose and Poems .
(٤٥) يوري داهيدوف (ثورة أكتوبر والفنون) ص ١٢١ .
Yuri Davydov , (The October Revolution and
Arts) , Progress Publishers , Moscow , 1967 , P . 121 .

(٤٦) بوريس باسترنالك في حديث أجرته معه أولجا كارلزلي
ونشر ضمن كتاب (الكتاب في عملهم) ص ١٢٦ .
Writers at work , The Viking Press , New York
1963 . P . 126 .
(٤٧) مارك سلونيم (تاريخ الأدب الروسي) ص ١٧٩ .

الانحرافات الجنسية والاستعاضة بعالم الاحلام عن العالم الواقعي. والانطلاق وراء المفارقات الجذوة للخيال المنحدر من كل فيود باعتبارها مهربا اخر من فيح العالم الشرير . وقد جسد هذا العارض الدائم بين العظم والحقيقة في شخصيتين رمزيتين استعارهما من رانسة سرفانس (دون كيشوته) وهما دولسينيا والدونسا . كما جسده ايضا من خلال المفارقة الدائمة بين اجساد الفتيات الهشة الرقيقة وفظافة الرجال وحيوانيتهم وختونتهم . وقد كتب سولوجوب بالإضافة الى تلاميذ الشرير (الأسطورة المبتدعة) عددا من الروايات الرمزية كانت اهمها (الشيطان الصغير) ... وهذا المقطع من قصيدته الطويلة (دون كيشوته) يجسد لنا نوال هذا العالم الشرير المليء بالكروب والمنفصات الى سيف دون كيشوته الشجاع ..

الاحالات والتضمينات الصديدة داخل قصائدهم . ومن ابرز اشعاره مجموعة السوناتات التي سماها بالسوناتات الرومانسية . وهي القصائد التي كتبها في منفاه .. والتي حافظ فيها على بعض سماته الرمزية وان مالت الى البساطة والمباشرة والتفني بروما القديمة وبأينا القديمة التي دمرتها اقدام العالم الحديث الثقيلة الخاملة .

لا يبقى من شعراء هذا التيار الرمزي البارزين سوى زينيدنا جيبوس التي كانت اقرب هؤلاء الشعراء الى تشاؤمية سولوجوب وان امتزج تشاؤمها بشيء من شهوانية باتشكوف الجامحة ، وبشيء من مفردة بالموت الفنائية والإقاعية . وكانت من حيث رمزيتها شاعرة تعقيدات عقلية ومتناقضات ذات طابع تجريدي غامض ، تنطوي على رؤية متشائمة للعالم الذي ينضج من حوالها بالشر ، والتي اجسدت حياها بنوع من الكراهية . وكان شعرها الى جانب غموضه مليئا بالإشارات والاحالات الثقافية التي جعلتها شاعرة الطبقة المثقفة والمعيرة عن هوم الرمزيين العقلية . كما اعطتها جرأتها كأميرة على تناول الموضوعات الجنسية والشهوية صورة شيطانية وساحرة معا . وكانت اشعارها الشهوانية تنطوي على بعد فلسفي واضح يمزج الإيقورية بنوع شديد الخصوصية من الصوفية . ويصبر عن هذا المزج الغريب في الشعر من خلال غنائية تميل الى الفانسية وتستلطن الشاعر الدفينة لامراه مليئة بالتمزقات النفسية . فقد هاجرت مع زوجها عقب الثورة عام ١٩١٨ وكانت شديدة المساء للشوعية ووثيقة الصلة بالنشاط الادبي والسياسي لزوجها ديمتري ميرجكوفسكي ، وظلت في فرنسا حتى ماتت في باريس عام ١٩٤٥ . وقد « حافظت هذه الكاتبة ذات التفكير القاسي والشعر العاطفي ، خلف واجهة الشيطانية والسلبية ، على غموض حافظد القرب الى الشر . ولكنها انجزت شكلا شعريا خاصا ، غريبا وبسيطا . انسيابيا ورخيما ، وقد اشتهرت ايضا بمقالاتها السياسية اللائحة ، ومسرحيتين حافظتين بالغموض النفسي » (٤٧) وفي القصيدة التالية (هي) تلمس بعض التلامح الفنية والمضمونية لتجربتها الشعرية ..

في خطها ودناتها الشريرة ، كانت
رمادية كالتراب ، كرماد الأرض .
وقد اصناني قريبا ، وارهنني تلك
الرابطة التي لا تفكك منها ، بيني وبينها .
انها مقعدة شائكة ، باردة ، خبيثة ومخادعة ،
وذبولها المثير للاشمئزاز ، وهشورها الخشنة ،
قد غطنتي بالجراح الدامية .
اني لي أن اشعر حياها باي شيء
انها مترهلة ، غبية ، بليدة ، كسولة ، ومضجرة
ليس بإمكانها ان تنفعل ، انها صماء .
يطوفني الاضطراب من كل جانب
انها عنيدة وحرون ، يملاني عناقها بالهواجس
ويوشك ان يخنقني ..
وهذا الشيء القائم الخوف المليء بالموت
هو روحي .

في هذه الرؤية الوحشية للذات تتجسد لنا تلك المفارقة القاسية بين عشق الذات وكراهيتها معا ، بين الرناء لها والفضج منها في آن . وتتجسد لنا ذلك التناول المباشر البسيط الغريب معا ، والذي اثر كثيرا على الشاعرات الروسيات فيما بعد ، ومكن الصوفية الرمزية من ان ترشد الشعر الروسي براهد تري من الرؤى الفلسفية الخبيثة .

التهمة في العدد القادم

لم يختر دون كيشوته طريقة في الحياة ،
فروزانيتي سوف تجد الطريق بنفسها ،
فالاعداء يواجهون البطل الباسل اتي لهب ،
ودون كيشوته سيكون دائما في عراك معهم .
وحيث يحيط الفخار بالاستهزاء والخدمية والمخاتلات الشريرة
والسقطات المحزنة والتحولت والمعارك والهزائم المنكرة
وعبر الظلم والفضج الصنوي للأيام الجديدة الحارة ،
وللعربات واثناء اللعنات وصغير السخربة والتهمك والصحك ،
فإننا نفتقد سيفه وترسه وحرته وحصانه .

قرىما استطاع ان يخلص هذا العالم من بعض هذا الشرك المشتري فيه دونما رادع ، وربما اعاد الى هذا العالم الكئيب نفاذ الاول وبراعته الاولى .. حيث كان ثمة فارس يدافع دائما عن الحق والعدل دونما انتظار لجزاء او مشوبة ..

اما ايفانوف ، الذي ترك روسيا عام ١٩٢٤ ومات في ايطاليا لاجل سياسي فقد كان تكرارا لمصير بالموت الآسيت وان لم يكن تكرارا لشعره .. وكان ايفانوف عالما بارعا في اللغة اللاتينية واليونانية ، وباحثا متخصصا في فلسفة ديانة الاله العذب الاغريقية التي بحث فيها مصر ديونديسوس التراجيدي . درس لدى يدي تيودور موسن في برلين . وكان زعمما لا ينازع للاتجاه الرمزي في بطرسبورج بين ١٩٠٥ و ١٩١١ . وتأثر كثيرا بالنمط الكلاسيكي الرصين للتراجيديا الاغريقية وبفلسفة نيشه التي كانت نهض أو بالاحرى تتجسد في دعوى القريقية . وتحول عن ارتودوكسية الكنيسة السلافية الى كاتوليكية الكنيسة الرومانية ابان اقامته بايطاليا .. وجمع اعماله الرمزية في مجموعته الشعرية (Car Ardens) التي اهتم فيها باحياء الاساليب المبهجرة ، « مذاق غيرها » مجموعة كاملة من الاساطير عن التفرد والتعدد وعن الطبعة والانسان وعن الأرض والشمس . واعتبر ديانة دونديسوس وديانة المسيح شيئا واحدا . وكان يرى ان اعظم الاعمال الفنية مستقاة من نفس المصدر الذي اخذت منه الاساطير والاديان .. وهو الابداعات الجمعبة كشمر اللحم والتراجيدنا والاغاني الشعبية والمسرحيات الدينية . ولما كان يختلف كثيرا عن علماء الجمال البرناسيين الذين يتحدثون عن الجمال غير الهادف . فقد اصبح هذا العلامة الذي كان له فضل سبق على ت.س. اليوت وعزرا باوند بنظمه التحميل ، وقصائده الفنائية الغامضة التي لا عيب فيها على الرغم من مللها ، زعمما روحيا وادبا » (٤٦) اغنيسه شعراء بطرسبورج ابان ازدهار الحركة الرمزية اميرا للشعر ، لانه كان امهرهم في السيطرة على الكلمات ، وكان له فضل توجيه شعراء بطرسبورج وتصحيح مخطوطات قصائدهم .. كما اتاح لهم بثقافته اليونانية الانفتاح على عالم الاساطير اليونانية والاستفادة منه في